www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

ما وراء الطبيعة

روايات لتحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة العشيرة

القانون الأول : لا أحد سوانا .. لأنه لا أحد يقبل أن يكون منا ..

القانون الثاني : ما يعرفونه لا يعنينا أن نعرفه .. وما نعرفه لا يصدقه أحد منهم ..

القانون الثالث : كل حياتهم لنا .. ودمهم مستباح .. لكننا لا نبغى أموالهم لأنها منهم ..

د. أحمد خالد توفيق

مطابع سلاح العربية

الثمن في مصر
بالدولار الأمريكي

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم :
أسطورة
في جانب النجوم

مقدمة

عن ما وراء الطبيعة أكتب ..

عن الأشياء التى لاترى ولاتسمع ولاتشم ولاتحس .. وربما لاتعقل كذلك ..

عن الأشياء التى تتحرك خارج مركز الإبصار ، والتى تدير وجهك نحوها لتجد أنها ليست هنالك .. عن الإحساس الغامض فى مؤخرة عنقك ، حين تنتصب الشعيرات ، وتشعر أن هناك ما لاوجود له يقف وراءك ..

عن الأشياء التى لااسم لها كما يسميها (لافكرافت) العظيم ، الذى لابد أنكم تعرفونه الآن ..

عن الخوف أكتب ..

عن الستائر التى تتموج ليلاً فى ضوء القمر دون أن تكون هناك أنسام تبرر هذا كله ..

عن الأبواب التى تصدر صريرًا لايكفى بعض الزيت لعلاجه ، وكل أبواب قصص الرعب تصدر صريرًا كما تعرفون ..

عن شواهد القبور فى وقت الغروب ، والساعات التى تشير إلى آخر لحظة كان أصحابها أحياء ..

عن الأطفال الذين تلعب معهم ساعة أو أكثر ، ثم تعرف - بالصدفة - أنهم ماتوا من أعوام ..

عن الوجوه التى تنطبع على زجاج النوافذ ، وصوت الأنين القادم من غرفة نائية خالية فى دارك .. والشموع التى تنطفئ دون هبة هواء واحدة ..

عن الرعب أكتب ..

لكنه ذلك الرعب الهامس الموحى الذى يشبه لحناً غامضاً سمعته يوماً ما ، ولا تستطيع تذكره بالكامل .. الشعور بأن شيئاً ما لا تدرى كنهه سيحدث بعد ثوان ..

لا أتكلم عن الأطراف المبتورة والدماء والعيون المقلوعة فليس هذا هو المكان المناسب بالتأكيد .. ربما قابلت بعضها فى قصة اليوم ، لكنه الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ..

- اليوم نتحدث عن العشيرة ..

* * *

١ - مقدمة لا بد منها للأسف ..

لندن بعد منتصف الليل ..

هناك فيلم رعب قديم لـ (لون تشانى) بهذا الاسم ، لكننا بعيدون عن أفلام الرعب هنا .. (لندن) القرن التاسع عشر المظلمة بشوارعها الضبابية وأنوارها الخافتة ، يجول فيها السفاحون والمذءوبون والمسوخ الهاربة من المعامل ، بينما البشر النادرون الذين تلقاهم هم دائماً ضحايا .. هذا هو ما تعلمناه من السينما وقصص الرعب القديمة ، أما (لندن) المعاصرة فمدينة راقية متحضرة .. لا شىء يخيف فيها إلا عدم تمكنك من اللحاق بالمترو ..

لهذا - يمكننا أن نفهم - كان (تيموثى مورجان) يركض ركضاً وهو يختلس نظرة إلى ساعته من حين لآخر ..

إنه موظف فى أحد الفنادق فى (ساسكس جاردنز) ـ وسط المدينة ـ ويسكن فى ضاحية مطار (هيثرو) التى يسمونها (ميدل إسكس) .. ومن عادته أن يلحق بهذا المترو بالذات ليكون فى داره فى الثانية بعد منتصف الليل .. وقد ظل يمارس هذا الروتين خمس سنوات كاملة منذ استقر فى حى (كرانفورد) مع أسرته ..

الحقيقة هى أن العمل كان بعيدًا عن المنزل .. لكن العمل كان يناسب ميوله ، والمنزل كان يروق له ، وقد عجز عن أن يجمع الحسنيين فى مكان واحد ، ولكنه كان يؤمن بقدرة التعود على إزالة الصعاب ..

لندن بعد منتصف الليل ..

ليست بالضبط مدينة نائمة لأن لندن ـ كأية عاصمة أخرى ـ مدينة لاتنام ، لكن محطة مترو الأنفاق ـ ويسمونه هنا الأنبوب أو الـ Tube ـ كانت خالية كعادتها فى هذه الساعة .. لابد من الظلام .. الكثير منه .. لابد من الصمت .. الكثير منه ..

على الجدار تتناثر عبارات عشوائية رسمها بعضهم بعلب (السبراى) أو بالأقلام الغليظة .. عبارات بذيئة أو تتهم الحكومة البريطانية بالفساد ، أو تؤيد (كاسترو) وتنعى (جيفارا) ..

ربما تجد هنا أو هناك عجوزًا شريدًا نائمًا ، لأن لندن ـ كأية عاصمة أخرى ـ لا تعرف الرحمة .. إن لها وجوهًا عديدة لكن لا روح لها ..

الضوء الخافت يسقط فوق الجدران الرخامية ، وعلامات إرشاد هنا وهناك تحدد مسارات المترو العملاق ، الذى يشكل شبكة كاملة تحت المدينة الصاخبة ..

بعد قليل يصل المترو وكشافه الوحيد العملاق فى المقدمة يعطيه انطباعًا أسطوريًا كأنه ديناصور عملاق قادم لالتهام الجميع .. تنفتح الأبواب الكهربية ، ويدلف (مورجان) إلى الداخل ليجلس فى أول مقعد يقابله .. والعربة دائمًا خالية إلا من عجوز شريد آخر ، يمضى

ليلته فى رحلة لاتنتهى داخل عربات المترو .. لأن لندن - كأية عاصمة أخرى - لاتعرف الرفق بالشيوخ .. وتنغلق الأبواب ، وبعد دقائق يغلب (مورجان) عناء العمل الذى استمر ثمانى ساعات متواصلة ، فيغفو .. دائمًا لا تطول غفوته أكثر من نصف ساعة ، بعدها يصحو مذعورًا يتساءل أين هو .. ثم يفيق ويغفو ويفيق .. وفى النهاية يصل إلى المحطة ، فيترجل ويمشى قليلاً فى الشوارع المظلمة متجهًا إلى (كرانفورد) ..

هذا هو روتين حياته الممل .. طموح؟ لقد كف عنه من سنين .. لم يعد يريد إلا أن يظل فى هذا العمل الذى يدر عليه دخلاً معقولاً ..

الآن هو يدخل المحطة ويتجه إلى مكانه المعتاد من الرصيف ..

* * *

كان هناك ثلاثة أشخاص يأتون من بعيد .. على مسافة خمسين مترًا ..

لم يكن (مورجان) يخاف اللصوص ولا المتحرشين فى هذه الساعة .. لأن من يخاف هؤلاء يجب أن يكون ثريًا أو موحيًا بالثراء أو امرأة .. أما هو فلاشىء فيه يدعو للتحرش .. نظرة واحدة لمظهره وثيابه وعلامات المعاناة على وجهه ، تقنع أى لص أنه مجرد زميل آخر .. أو واحد من الأشخاص الذين لا اسم لهم وهم ملح الأرض ..

لكن شيئًا ما فى شكل هؤلاء القادمين جعله يتوجس نوعًا ..

كانوا يمشون فى غير انتظام .. مشيتهم توحى بالكثير من الاستهتار والعوانية والغطرسة .. وكانوا مسلحين بالعصى ، ويتبادلون الضربات فيما بينهم على سبيل المزاح ، وصوتهم مرتفع على غير عادة الإنجليز .. هؤلاء إذن من عتاة البلطجية ، أو هم ثملون إلى حد أن صاروا كذلك ..

نظر حوله بحثًا عن رجال شرطة ، لكن لم يكن هناك أحد .. هذا طبيعى لأن رجال الشرطة لايظهرون إلا حين

تكون أنت المخطئ ومن المستحيل أن تجد واحدًا حين تريده ..

تراجع للوراء وقدر أنه إن ظل هادئًا لن تحدث مشاكل .. لقد مر بهذا الموقف مرتين أو ثلاث مرات فى تاريخ عودته من العمل ، ولم يحدث له شىء ..

إنهم يقتربون أكثر ..

يدخلون دائرة الضوء .. وهذه المرة زال اطمئنانه وطارت نفسه شعاعًا ..

كانت على عيونهم جميعًا عوينات سوداء وثيابهم توحى بالهيبيز الذين كان هذا العهد عهدهم الذهبى .. مع فارق واحد هو أن الهيبيز أميل إلى السلام والتراخى .. هؤلاء كانوا واضحى الشراسة والقوة ، وأدرك أن اثنين منهم ملوثان بالدماء إلى حد يوحى بأنه لن يكون الضحية الأولى لهم فى هذه الليلة .. كما أدرك أنهم غائبون عن الوعى تمامًا .. لابد أنه مخدر ما من المخدرات التى يتعاطاها أمثال هؤلاء ..

بدأ يتراجع للوراء أكثر ، وقدر على الفور أنهم من أجله قادمون ..

أشار أحدهم إليه وصاح بلهجة (الكوكنى) التى يصعب فهمها على من لايعرفها :

- « هذا واحد آخر !! »

فأطلق الآخران ضحكة ماجنة مدوية ، وأطلقا سبة بذيئة ، ثم مشوا نحوه .. خطوات بطيئة لكنها فعالة .. لاداعى للإسراع فلايوجد أحد فى المحطة كلها ..

أين هذا المترو ؟ لاداعى لانتظار المترو على كل حال ، لأنهم - طبعًا - سيركبون معه .. مالم ينهوا الموضوع قبل أن يركبه ..

ماذا يريدون ؟ لايعرف .. وفى الغالب هم كذلك لايعرفون .. إنهم فى حالة غياب عن الوعى جعلتهم أقرب إلى ذئاب شرسة تحتاج إلى الدم .. أى دم .. سيضربونه ضربًا مبرحًا ولربما يقتلونه ثم يفرون ، ولسوف تكتب الصحف المسائية عنه ، باعتباره نموذجًا لما وصل إليه العنف غير المبرر فى هذه الأيام ..

نظر إلى نهاية الرصيف ، ووجد أن هذا هو السبيل الوحيد أمامه .. الابتعاد عنهم ..

ودون إعادة تفكير راح يجرى إلى نهاية الرصيف .. يجرى .. لم يبد أن هناك من يجرى خلفه لكنه أدرك أنهم يواصلون الزحف الحثيث نحوه ..

-« هلم يا (مارتن) .. إنه لك !! »

قالها أحدهم فى مرح .. فراح (مورجان) يركض أسرع وأسرع ..

نهاية الرصيف حيث ينتهى النور ويبدأ الظلام فى النفق الطويل المؤدى إلى المحطة التالية .. فقط هناك حبل معلق على سبيل الحاجز ، مع لافتة حمراء مضيئة تنذر الحمقى من تجاوز هذا الحاجز .. لكن لا خيار أمامه ..

رفع ساقه ليعبر الحبل ، ثم وثب عند نهاية الرصيف إلى الظلام .. وراح يركض موازيًا للقضيب ..

يسمعهم يركضون وهم يتصايحون فى مرح .. كما يتصايح النبلاء الإنجليز فى حماسة عند بدء صيد الثعالب .. يركض أسرع وأسرع ..

الآن هو يركض فوق الحصى الموجود على جانبى القضيب .. جواره جدار النفق .. ومسافة تبلغ نحو المتر تفصل هذا الجدار عن القضيب .. ظلام دامس .. لكنه يرى من بعيد كشافًا خافت الضوء معلقًا على الجدار .. وهو واحد من كشافات متباعدة تجعل الرؤية ممكنة إلى حد ما ..

يركض ولا ينظر للوراء .. لأن الراكضين الذين ينظرون للوراء يتعثرون دائمًا .. هل مازالوا خلفه ؟

الحقيقة أن دخوله هذا النفق حماقة ما بعدها حماقة ، ولو قتلوه هنا فلن يشعر به أحد .. لا أحد يجىء هنا منذ أنشىء خط المترو ، لكن ماذا كان بوسعه أن يفعل ؟ ينتظر حتى يهشموا جمجمته أو يبقروا بطنه بمديهم ؟

لن يستطيع طبعًا الركض حتى المحطة التالية .. هذا يحتاج إلى ساعة كاملة أو أكثر .. عليه أن يبقى هنا بعض الوقت ثم يعود بعد فترة تسمح بانصراف هؤلاء المشاغبين ..

النفق يرتج .. لماذا ؟

آه ! لقد جاء المترو الذى كان يجب أن يركبه .. ورحل طبعًا .. وهو الآن يتجه إليه !

نظر للوراء فرأى الضوء الرهيب فى نهاية النفق يكبر حجمًا من لحظة لأخرى ، والنفق يرتج أكثر فأكثر .. أدار ظهره للجدار ليلتصق به ، وبذل مجهودًا عنيفًا كى يتحول إلى نوع من الطلاء الملتصق بالجدار .. كانت هناك أجزاء حجرية بارزة فأنشب أظفاره فيها ، وتمنى ألا يكون تفريغ الهواء عنيفًا إلى الحد الذى يلقى به تحت عجلات الوحش القادم ..

فوووووووووووه !

مر الهول القادم به ، على مسافة لا تتجاوز ثلاثين سنتيمترًا .. كان الأمر لا يصدق كأنه الكابوس ، وراح النفق يرتج بأعنف ما يمكن ، بينما العربات المضيئة تجرى أمامه بسرعة ، حتى إن صورتها تحولت إلى جسم طويل مضىء هائل الحجم بلا تفاصيل وبلانهاية ..

وكاد تفريغ الهواء ينزعه من مكانه لكنه تشبث بقوة تفوق تحمل البشر .. تخيل أنه سحلية تتشبث بقوة فى تجاويف جدار ..

حقًا هى تجربة شنيعة تغير تضاريس روحك ذاتها ، ولأسباب كهذه عالج القرويون عندنا العقم وبعض الأمراض المستعصية بالنوم بين قضيبى القطار فى أثناء مروره على سبيل (الخضة) .. تجربة كهذه يمكن أن تمرض السليم وتشفى السقيم حقًا ..

أخيرًا مر الكابوس فتخلى (موجان) المرتجف عن الجدار ، ووقف يرمق القطار المبتعد فى دائرة نور تنكمش عبر النفق .. لشد ما تمنى لو كان فيه الآن !

* * *

أما وقد مر المترو فقد وجد نفسه يمشى بلا هدف فى الممر الطويل وهو يترنح فوق ساقين لا تشعران ..

لماذا مشى مبتعدًا عن المحطة وقد كان المفترض

أن يعود لها ؟ هذه أشياء لايمكن تفسيرها بالورقة والقلم .. أجدادنا وصفوا الموقف بتعبير شعبي حكيم - وكل التعبيرات الشعبية حكيمة .. هو : (ساعة القضاء يعمى البصر) ..

ربما لأن مرور القطار أذهل عقله ، وربما لأنه كان يقدر أن العصابة لم ترحل بعد ، وربما لأنه اعتقد أنه يمكن أن يصل للمحطة التالية .. المهم هنا أنه واصل رحلته وحيدًا في النفق المظلم ، لايرى إلا على ضوء الكشافات الخافتة المعلقة على الجانبين ، والتي كان يراها من نافذة المترو كخط واحد مضيء ..

سمع صوت العواء فارتجف ..

ذئاب هنا ؟ أليس هذا غريبًا بعض الشيء ؟

لكنه في موقف سيئ حقًا .. رباه ! إنه موقف كريه مقيت ..

لو كان هنا ذئب أو مجموعة من الذئب فماذا عساه يفعل ؟ كيف يركض فوق هذه القضبان ؟ وإلى أين يذهب ؟

ولكن .. ذئاب تحت شوارع (لندن) .. هذا سخف .. صوت العواء ليس سخفًا .. لكن لابد من تفسير ما ..

تعقل .. تعقل .. تعقل ..

ستنجو .. ستنجو .. ستنجو ..

نظر للوراء . لكنه رأى مايدعوه إلى المزيد من الركض في الاتجاه الخاطئ .. لابد من كثير من الركض ..

هنا ؟ مستحيل ! لابد أن هذا كابوس .. لسوف يفيق منه حالاً ، وتقدم زوجته له القهوة والخبز المحمص ..

راح يركض ويصرخ .. يركض ويتوسل .. يركض ويسب يركض ويبصق .. يركض ويتعثر .. يركض ويبكي .. يركض ويئن .. يركض ويلهث .. يركض ويرتجف ..

يركض و ... أنت تعرف هذا النوع من القصص بالطبع ..

وعندما مر المترو التالي كان الصخب عاليًا إلى درجة أن جدران النفق نفسها لم تسمع الصرخة ..

* * *

٢ ـ أنا من جديد !

القانون الأول :

لا أحد سوانا .. لأنه لا أحد يقبل أن يكون منا ..

* * *

لله ما أجمل الحياة !

كنت فى هذه الأيام أعيش فترة من الصفاء الروحى الكامل .. حتى بدأت أعتقد أننى مت أخيرًا وصرت روحًا شفافة .. لم يعد هناك صداع ، وتحسن ضغط دمى كثيرًا لأسباب لا أفهمها .. ومنذ فترة لابأس بها ـ حوالى ستة أشهر ـ لم أر شبحًا أو أسمع قصة عن واحد .. لابد من لحظة مايكف المرء فيها عن أن يكون مختلفًا ويصير له الحق فى الحياة كالآخرين .. لقد انتظمت حياتى أخيرًا بعد قصة ذراع المومياء إياها ..

والسبب الآخر الذى لا أعترف به ـ أنا لم أعد

مراهقًا ـ هو أن (ماجى) كانت فى الموضوع هذه الأيام .. كنت فى (لندن) فى مهمة علمية ، هى الإشراف على طالب دكتوراه لامع يدرس هناك ـ أعتقد أنه (محمود أبو زهرة) إن لم تخنى الذاكرة ـ وكان على أن أمضى أسبوعين فى عاصمة الضباب التى كانت تحكم العالم يومًا ما ..

طبعًا لم يكن ممكنًا أن أكون فى (بريطانيا) ولا تخبر (ماجى) أننى هنا .. اتصلت بها فى (إنفرنسشاير) فجاء صوتها الأثير العزيز عبر سماعة الهاتف .. لغتها الإنجليزية الراقية وطريقتها العاقلة الودود فى الكلام .. ومن جديد أشعر أننى ذلك الطفل التعس الذى لايعرف كيف يتصرف من دون (ماما) ..

لا أدرى كيف ولامتى بكيت .. يبدو أننى أمضيت تسعين بالمائة من اللحظات التى قابلتها فيها ، أبكى كالبلهاء وأتمخط فى كم بذلتى ..

ـ « يا لك من طفل ! اهدأ يا (رفعت) .. اهدأ أيها الأحمق .. رباه ! ماذا فعلت الحياة بك يا صغيرى ؟ »

- « لم تفعل شيئاً على الإطلاق .. لعل هذا سبب كاف للبكاء !! »

قالت بطريقتها العملية :

- « لكن .. يجب أن أراك .. متى يناسبك أن نلتقى ؟ »

- « اليوم .. الآن ! »

- « هذا لن يناسبنى .. اسمع .. سأكون فى (لندن) بعد ثلاثة أيام ولكن لمدة يوم واحد لا أكثر .. لن أستطيع إيجاد وقت أكثر على جدول أعمالى .. سأتصل بك قبل وصولى على هذا الرقم .. »

وضعت السماعة شاعراً بالحيرة والتخبط والغباء .. إنه ذلك الشعور الذى يشعر به النشال بعد أن يتلقى علقة فى الحانة .. علقة توصله إلى حد عدم الشعور بالألم .. إنما هو مذهول وربما يضحك .. إن (ماجى) بالفعل قد تحولت إلى معنى .. مصدر لغوى .. أكثر من كونها مجرد فتاة أحببتها .. وأنا أعرف جيداً لماذا لم أتزوجها حتى الآن ، لأن الإنسان لا يستطيع

أن يتزوج مصدراً لغوياً أو معنى مطلقاً .. هل سمعت عن شخص - مهما كان أحمق - تزوج من العدالة أو الحرية أو المروءة ؟

لن أطيل عليكم على كل حال ..

هناك أشياء لايمكن التعبير عنها بكلمات ، ولو حاولت أن تفعل فلن تكسب إلا مضايقة الآخرين .. من يهتم بهذه الأمور سيجد الكثير منها فى الكتيب الحادى والثلاثين (أسطورتها) .. وكما أن مريض الزكام لايتحكم فى أنفه ، كنت أنا وقتها مصاباً بنوع من الزكام العاطفى .. وهو نوع من الزكام لا تجدى معه كل أقراص فيتامين (ج) فى الكون ..

* * *

كنت أقيم فى حى (كرانفورد) فى (ميدل إسكس) .. جوار مطار (هيثرو) الشهير .. هذا هو المكان الوحيد الذى استطاع تلميذى أن يحجزه لى فى هذا الموسم .. إن الحى يوشك أن يكون جزءاً من (بومباى) أو (إسلام آباد) من كثرة من فيه من هنود وباكستانيين ، لكنى بالطبع لا أهتم بأين أسكن لأنى منغلق على عالمى

الداخلى .. الشىء الوحيد الذى ضايقنى كثيراً هو كثرة الطائرات التى تهز البيت هزاً والمنطلقة كل لحظة من مطار (هيثرو) أو المتجهة إليه .. يصعب إقناعى بأننى لا أعيش فعلاً فى ممر الطائرات ..

لكن الشقة الصغيرة التى حجزها لى لمدة أسبوعين كانت مريحة ، وكنت أحبها بحق ، خاصة وأنها تطل على حديقة صغيرة جميلة .. إننى لا أرى الزهور إلا نادراً وقد احتجت إلى وقت أطول من اللازم كى أتذكر اسم هذه الكائنات الرقيقة المبهجة ..

لا أرى الزهور إلا نادراً ، وقد جاءت (ماجى) .. ثم رحلت ..

فقط سألتنى وهى تقف على الباب مودعة :

- « للأبد ؟ »

- « ماذا ؟ »

- « ستكون ملكى للأبد ؟ »

- « وحتى تحترق النجوم كلها .. وحتى .. »

هنا صاح سائق سيارة الأجرة الإنجليزى متململاً ، لأننا تركناه واقفاً أمام البيت كل هذا الوقت .. ولم تجد (ماجى) بداً من قطع العبارة واللحاق بالسيارة ..

وتنهدت وأنا أعود إلى الداخل .. أمامى عشرة أيام أو أقل هنا .. سأغرق نفسى فى العمل كى لا أفكر فى شىء آخر .. إن الأحلام لاتدوم للأبد .. إنها ترحل بعد ما ترطب وجودك ، لكنك - وهذا قاس - لاتتحمل بعد رحيلها فكرة الحياة من دونها ..

* * *

أذكر أننى كنت واقفاً مع طالب الدكتوراه النجيب يبدو لى الآن أنه ليس (محمود أبو زهرة) .. ثمة احتمال لابأس به أن يكون (إبرهيم مينا) - نتحدث عن (لندن) ، وكنت أحب هذه البلدة بحق .. إن ذكريات دراستى هنا لاتبرح ذاكرتى أبداً ..

أول سفر للخارج .. أول بعثة دراسية .. أول حب متبادل ..

قال لى (إبراهيم) وهو يدفن عنقه فى ياقة معطفه فقد كان البرد قاسيًا :

- « لم أستطع قط أن أحب إنجلترا .. إنها الضباب والبرد والقسوة والتحفظ .. كل هذا فى وقت واحد .. »

- « لنفس الأسباب أحبها أنا بجنون ! »

قال فى اشمئزاز :

- « هنا لاتشعر بالأمان لحظة .. وإننى لأتساءل عن السبب الذى يجعل الدارسين مثلى يأتون بأسرهم .. »

ولوح بصفحة من (صنداى تايمز) تحت أنفى وصاح :

- « هل ترى ياسيدى ؟ لابد من مختفين .. لابد من ألغاز ما .. فى القرن الماضى كان (جاك السفاح) الذى يجوب شوارع (لندن) يقطع رقاب النساء ، واليوم .. ماذا عن اليوم ؟ »

لم أفهم لأننى لم أكن قرأت الجريدة ، وعلى العموم لست من هواة صفحات الحوادث فى أية جريدة ،

لهذا سألت الطالب النجيب .. أعتقد أنه ليس (إبراهيم مينا) .. لا أدرى لماذا أعتقد أنه (أحمد عدلى) .. سألت (أحمد عدلى) فى برود :

- « يبدو من كلامك أن هناك أشخاصًا مختفين .. »

- « وأكثر من ذلك .. إنهم قد صاروا عشرة الآن .. وكلهم فى وسط المدينة .. فى الساعات الأولى من الصباح .. »

- « لقد بدأت أستنتج من كلامك أن هناك عشرة أشخاص مختفين فى الساعات الأولى من الصباح .. »

نظر لى فى غيظ .. لم يكن طبعًا يعرف ولا يألف طريقتى السمجة فى المزاح ، لذا اكتفى بأن قال فى ارتباك :

- « عشرة .. هذا كثير .. والبوليس البريطانى و (سكوتلانديارد) لايعرفون شيئًا على الإطلاق .. فقط يتظاهرون بالخطورة والغموض ، ويقضون وقتهم فى ملاحقة الأجانب بحثًا عن تصاريح العمل .. »

هززت رأسى لأنه ليس عندى ما يقال ..

ولما كانت الساعة الخامسة مساء فإننى فارقت الطالب النجيب (أشرف راشد) على موعد فى الغد .. كنت أريد زيارة متحف (مدام توسو) ، لكنى لا أعتقد أنهم متحمسون إلى هذا الحد .. إذن هى جولة فى ضواحى (لندن) لأتأكد أننى لم أنسها ، وأنها لم تتغير بعد كل هذه السنوات ..

* * *

لم يكن عندنا مترو أنفاق فى مصر وقتها ، وكنت أنا منبهر كطفل بهذه اللعبة الإنجليزية التى تركبها فتحملك إلى كل مكان تحت الأرض .. وقد ركبتها مرارًا .. فى كل مرة آتى فيها إلى إنجلترا أقضى فى المترو أضعاف الساعات التى أقضيها فوق الأرض .. وكان هو وسيلتى المفضلة للذهاب إلى وسط البلد ..

يسمونه الأنبوب Tube فى العامية ، أما اسمه الرسمى فهو الـ Underground طبعًا .. وهو يتكون من ثلاثة طوابق تربط أكثر من 288 محطة .. ويقولون إن من

يمشى فى ممراته من دون خارطة إنما يستحق ما سيحدث له ، لأن الساعة قد تقوم وهو مازال لا يعرف أين هو .. أى أنه من الطبيعى جدًا أن تقابل رجلاً تمزقت ثيابه وطالت لحيته ، أو رجلاً مات من الظمأ .. إن اللافتات هنا كثيرة .. ربما أكثر من اللازم إلى حد أنها تجعلك أكثر جهلاً ، وهو بالضبط ما قاله فيما بعد الدكتور (جلال أمين) فى كتابه المهم (العولمة) .. كثرة المعلومات قد تجعلك عاجزًا عن اتخاذ قرار صائب ..

المهم أننى لم أحاول فى هذه الزيارة بالذات أن أتسلى بأن أضل طريقى فى المترو .. لم يكن عندى وقت ولا بال رائق لهذا .. بالإضافة إلى أن البرد شديد حقًا لا يغرى بالمغامرة ..

ركبت متجهًا إلى ضاحية (ميدل إسكس) كما قلت لك ، وجلست جوار النافذة أرمق النفق المظلم بالخارج .. هنا شعرت بأن مجنونًا جلس جوارى .. كيف عرفت أنه مجنون ؟ هذا سهل .. لأن ثيابه كانت خليطًا عجيبًا من

الألوان ، ولأن نقته كانت طويلة مشعثة وكذا كانت نظرات عينيه ، وكان يخفى فى صدر سترته كلبًا صغيرًا بحجم الأرنب .. هل هذا يكفى المرء كى يخمن أن جاره مجنون ؟ ثمة شىء فى مظهرى يروق للمجانين والمتسولين ولا أدرى ما هو .. لكنه نوع خارق من الجاذبية يدنو كثيرًا من مرتبة السحر ..

قال لى بلهجة حاسمة مسرحية :

- « إنهم هنا .. فى كل مكان .. أعرف هذا .. »

نظرت له وابتسمت باعتبار ما يقوله رائع حقًا .. فواصل الكلام :

- « إن الشرطة تنكر ذلك .. هل تعرف السبب ؟ هه ؟ هل تعرف السبب ؟ »

وأخرج زجاجة صغيرة مضغوطة من جيبه ، وفتح سدادتها وأفرغ جرعة فى فمه ، ثم - ويا للقذارة - قربها من فم الكلب الصغير ليلعق لعقة من حافتها .. كلب صغير بائس صعلوك مثل صاحبه .. وبالتأكيد لا يشغل مكانة مرموقة أو محترمة فى دنيا الكلاب ..

وكان يخفى فى صدر سترته كلبًا صغيرًا بحجم الأرنب ..

أعاد الرجل السدادة للزجاجة والزجاجة لجيبه ثم عاد يسألني :

- « هل تعرف السبب ؟ هه ؟ »

قلت في ذكاء وأنا لا أفقه مما يقول حرفاً :

- « لأن لهم مصلحة في الإنكار .. إنها نظرية المؤامرة !! »

- « بل لأنهم لايعرفون ! بالله عليك هم لايعرفون ! يتظاهرون بالعلم والسيطرة على مجريات الأمور .. لكنهم لايعرفون ! »

هززت رأسي ، وقلت بلهجة من ينهي المحاورة :

- « سيعرفون .. سيعرفون .. المهم أن تستمر أنت وأمثالك ، ولسوف تنتصر الحقيقة يوماً »

ثم أسندت خدي للزجاج البارد ، وصممت أن أتظاهر بالنوم كي يتركني وشأني ..

لكني نمت فعلاً بعد يوم طويل شاق ..

* * *

٣ ـ حكاية ثلاث فتيات لم يعدن ثلاثاً ..

القانون الثاني :

ما يعرفونه لايعنينا أن نعرفه .. وما نعرفه لايصدقه أحد منهم ..

هن ثلاث فتيات ..

ثلاث فتيات عاملات من الطراز البريطاني ، أي الفتاة العملية جداً لاتشعر بأنوثتها على الإطلاق ، والمسترجلة قليلاً وإن حرصت على ارتداء أحدث موديلات الثياب ..

ثلاث فتيات هن ..

(ماري) و(إليزابث) و(ساندرا) .. الأولى والثالثة زنجيتان .. نعم فالزنوج في كل مكان من (لندن) ولهم وضع لابأس به أبداً بالنسبة لزنوج أمريكا في أعوام التفرقة العنصرية هذه.. حينما كان (مارتن لوثر كينج) و(مالكولم إكس) يموتون على أيدي البيض في الولايات المتحدة ..

الفتيات الثلاث يعملن فى مطعم ، ويقمن فى شقة واحدة فى (وست إند) .. وبالنسبة لهن لم تكن الحياة مبهجة جداً لكنها محتملة .. صحيح أن الغد لا يبشر بالكثير .. لكنهن سيتزوجن يومًا ما .. ولئن كانت حياتهن مملة فلربما كانت حياة أزواجهن أكثر إثارة .. ما زال زوج الغد هدية غامضة فى صندوق مغلق .. ربما هو وسيم مثل (مايكل كين) .. ربما هو ثرى مثل (أوناسيس) .. ربما هو ظريف مثل (بيتر سيلرز) .. وربما لا وجود له أصلاً !

لقد انتهى يوم من العمل الشاق ، ومن تحمل سخافات الزبائن ، لأن الزبون دائمًا على حق مهما كان كذابًا وقحًا مدللاً متغطرسًا أحمق مدعيًا متظرفًا سوقيًا سمجًا لزجًا لحوحًا مضللاً أخرق غبيًا متحذلقًا .. لكنه على حق !

لقد بدأ يوم الأحد ، وهو إجازة فى كل البلاد ما عدا فى المطاعم ! لا شىء يتغير فى روتين الحياة ولا شىء يتغير فى النكات التى يتبادلنها .. يبدو أن عليهن الصمت

لمدة عامين إلى أن تتجمع مواضيع مشتركة جديدة ..

هن ثلاث فتيات ..

ثلاث فتيات هن ..

وعنهن أكتب هذا الفصل القصير ..

* * *

كانت محطة المترو خالية تمامًا فى هذه الساعة المبكرة من صباح الأحد .. لقد اعتدن هذا كما اعتدن ألا يخفن .. فهن معًا وهذه نقطة مهمة .. معًا حتى الوصول إلى البيت والنوم .. وقد علمتهن التجارب أن المتاعب قلما تحدث لثلاث فتيات مجتمعات ..

النقطة الثانية المهمة أن الأولى ـ (مارى) ـ تحمل سكينًا زنبركيًا فى حقيبة يدها ، بينما الثالثة (ساندرا) تجيد بعض الكاراتيه من مدرسة حضرتها العام الماضى ، ومنذ عام كسرت ذراع شاب مشاغب ضايقها أكثر من اللازم .. أما الثانية (إليزابث) فتضع فى حقيبة يدها قالبًا من القرميد .. وهو طريقة فعالة جدًا فى

القتال .. فى هذا الزمن لم تكن أشياء مثل الصاعق الكهربى والسبراى تباع فى المحلات هناك ..

وقفن على المحطة ينتظرن المترو ، وهو لن يتأخر على كل حال .. وراحت (مارى) و(اليزابث) تتبادلان حديثًا هامسًا ، لأن صمت المحطة كان يوحى لهما بأن كل (لندن) تسمع ما يقولان ..

فجأة سمعن صوت نباح كلب ..

نظرن إلى نهاية الرصيف ، فوجدن أن هناك أربعة رجال يمشون فى تؤدة نحوهم وقد أمسك اثنان منهم بكلبين .. كلبين من سلالة مجهولة لكن الكلاب السوداء الضخمة عالية الظهر تتشابه على كل حال ..

لم تحب (ساندرا) المنظر كثيرًا خاصة أن الكلبين كانا يتواثبان محاولين الخلاص من الحبلين اللذين يقيدانهما .. كلبان من سلالة متحمسة تهوى القتال فيما يبدو ..

نظرت لـ (اليزابيث) فى عدم فهم ، فقالت لها فى هدوء :

ـ « لا تتحركى ودعيهم يمرون .. »

ووقفت الفتيات الثلاث ينظرن فى رعب إلى القادمين ، لكن كل واحدة منهن أدركت أن القادمين لن يكتفوا بالمرور .. منظرهم يوحى بالمشاغبة وحب التحرش .. والنقطة الأهم أن معهم كلابًا ، وهذه لا يجدى معها القتال على الطريقة اليابانية ..

القادمون يقتربون أكثر ويتبادلون عبارات المزاح .. هنا هتفت (ساندرا) وهى شبه قائدة هذا الثلاثى :

ـ « يجب أن نبتعد ! »

كن يعرفن أن الركض سيقطع الخيط الوحيد الذى يحفظ عقلانية هذه المواجهة .. هنا فقط سيفتح باب الجحيم ويتحول الموقف السخيف إلى مطاردة حقيقية .. لكنهن لم يهتممن وبدأن يجرين نحو الاتجاه الوحيد المفتوح : نهاية المحطة .. وبدأت الكلاب تنبح وتحاول التملص من سادتها الذين كانت سرعتهم بالطبع لا تناسب الكلاب المتحمسة ..

المشكلة أن العودة لم تعد متاحة ، والاتجاه الذى يجرين إليه هو نهاية الرصيف حيث تبدأ (أرض اللاإنسان) التى نعرفها عند نهاية أرصفة المترو .. النفق الأسود الطويل ..

هنا صاحت (إليزابث) :

- « هذا لن يكون ! إنهم يقودوننا إلى الهلاك ! »

وطوحت بحقيبتها حول رأسها بضع مرات ، ثم قذفت بها - بقالب القرميد - فى وجه أحد القادمين ، ولابد أن الضربة كانت قوية إلى درجة أن الرجل سقط على الأرض وهو يئن ويتلوى ..

المشكلة هى أن الرجل كان يمسك مقود كلبه ، وما كان يحب أن يترك المقود لكنه تخلى عنه ليمسك بوجهه .. وهكذا تحرر الكلب وبسرعة البرق طار فى الهواء ، وكان آخر ما رأته الفتاتان المذعورتان هو (إليزابيث) ساقطة على الأرض والكلب ينشب أسنانه فى عنقها ..

أين الناس ؟ أين رجال الشرطة ؟

راحت الفتاتان تركضان إلى نهاية النفق بينما صوت الكلب الثانى - الذى كان فمه فارغاً - يصم أذنيهما .. وفتحت (مارى) نصل مطواتها الزنبركية ، وصممت على أن تبيع حياتها غالية .. لماذا لا يتكلم هؤلاء الحمقى ؟ لماذا لا يقولون ما يريدون ؟

الغريب كذلك أنهم لم يحاولوا الإمساك بهما .. كان كل ما يريدونه هو أن يدفعوهما دفعاً إلى النفق .. ربما فكرت الفتاتان فى التوقف والمواجهة لكن بدا هذا مستحيلاً فى وجود الكلب المتحمس ..

وفى وجود الذعر ..

* * *

كانت (مارى) الآن تجرى فى الظلام وتنشج :

- « (إليزابيث) ! قد تخلينا عن (إليزابيث) ! »

لم ترد صاحبتها لأنها كانت تجرى كالظليم ، وإن كانت بدورها تنشج ..

ومعًا تجرى الفتاتان الزنجيتان جوار قضيب المترو فى الممر المظلم الطويل الذى لاتضيئه إلا مصابيح جانبية خافتة .. لم تنظرا للوراء ثم سمعتا صوت هدير المترو القادم .. الأرض تهتز بعنف ..

ـ « التصقى بالجدار وتشبثى ! »

قالتها (ساندرا) بينما الضوء الساطع يملأ الممر ويعمى الأبصار ..

ضغطت على أسنانها وكذا ضغطت صاحبتها على أسنانها .. الهول القادم .. قليل من البشر من يتحمل فكرة مرور قطار على بعد سنتيمترات منه فى هذا النفق الطويل .. هذا مشهد تراه فى الكوابيس .. ويصعب أن تتخيل وجوده فى مكان آخر ..

لكن المترو لم يستمر بنفس السرعة .. هدأت سرعته رويدًا رويدًا .. ثم تعالى صوت الفرامل الزاعق مع كثير من الدززززززز والتشششش والإىىى .. ثم توقف .. وانفتحت الأبواب ..

تبادلت الفتاتان النظرات وهما تريان الباب المفتوح كاشفًا العربة المضيئة على بعد نصف متر منهما .. هذا أجمل من أن يصدق .. ثم هتفت (مارى) :

ـ « ماذا تنتظرين ؟ »

وكالقرد تسلقت إلى عتبة الباب التى ترتفع كثيرًا عن الأرض ، ثم تمسكت بقضيب حديدى ومدت يدها لصاحبتها .. فلم تكذب (ساندرا) خبرًا ووثبت بدورها .. وسرعان ما انغلق الباب من جديد ، وألقت كل منهما برأسها عليه مغمضة العينين لاهثة غير مصدقة أنها نجت ..

وراح هدير المترو يتعالى وهو يقطع الأميال دون كلل ..

كانت العربة خالية إلا من عجوز زنجي جالس يلتهم شيئًا من ورقة على حجره .. من الطراز الذى لايتدخل فيما لايعنيه ، ولايهمه كثيرًا أن يفهم من أين جاءت هاتان الفتاتان .. نظرت له (ساندرا) وسألته :

- « لماذا توقف المترو هنا ؟ »

هز رأسه ومط شفته السفلى المبرقشة ببقايا الطعام، وقال :

- « لا أدرى .. لابد أن مجنونًا ما جذب ذراع الإنذار .. هذه الأشياء تحدث ، وفى الغالب لا يجد السائق سببًا .. »

مجنون ربما .. لكنه أسدى لهما أعظم خدمة فى حياتيهما ..

وهمست (ساندرا) لصديقتها وهى تمسح الدموع من عينيها الحمراوان :

- « سنبلغ الشرطة بمجرد الوصول لمحطتنا .. ربما مازال من الممكن إنقاذ (اليزابيث) البائسة .. »

كانت الفتاتان تتوقعان أن المطاردين قتلة أو لصوص أو شباب عابث .. وكلتاهما سعيدتين بالنجاة ، لكن لو علمتا حقًا ما هربتا منه ، لانتابهما الذهول أو أصابهما الجنون ..

* * *

٤ ـ فى ساعة متأخرة ..

القانون الثالث :

كل حياتهم لنا .. ودمهم مستباح .. لكننا لانبغى أموالهم لأنها منهم .

انتهيت من أعمالى فى المستشفى مع الأستاذ الإنجليزى (مايكل برايان) .. وهو رجل قصير القامة له طابع مضحك كأنه مندوب مبيعات متحمس ، أو يدافع عن قضية خاسرة .. ولم يكن بارعًا إلى الحد الذى يحاول التظاهر به .. وهو شىء لم أعتده فى الأساتذة الإنجليز على كل حال .. فهم يستعملون فى وصف هذا النمط لفظة هى Parvenu التى يصعب ترجمتها (فى القاموس معناها الحرفى : مستجد) ، لكنها بدقة تعنى الأستاذ الذى يتبختر كالطاووس ويحمل شهادات علمية كثيرة ، لكنه خاو تمامًا ولا يستحق لقب أستاذ ..

لست مسئولاً عن مستوى الرجل على كل حال ..

فى المساء دعانى طالب الدكتوراه اللامع (جميل فرج ـ أعتقد أنه ليس (أشرف راشد) ـ إلى العشاء فى داره، والدعوات فى بلاد الضباب لاتكون إلا للعشاء لسبب لا أفهمه .. إن الوجبة الرئيسية هنا هى العشاء دائمًا ..

كان يعيش فى غرب (لندن) فى ضاحية (إلينج برودواى) وهى ضاحية تشبه عدة ضواح أخرى فى (لندن) إلى حد التطابق .. الحقيقة أن (لندن) عبارة عن مجموعة من الضواحى المكررة التى تتشابه تمامًا .. (إلينج برودواى) هى بالضبط (هونزلو بيل) هى نفسها (ويست كرويدن) .. وفى كل ضاحية لابد أن تجد شارعًا هو نسخة بالكربون لشارع (أوكسفورد) التجارى الشهير فى وسط البلد، الذى يشبه شارع (سليمان) عندنا .. حيث تجد كل المحلات المهمة والأسماء الشهيرة !

إن الأمر يحدث إلى حد ما فى مصر .. فكل مدينة ـ مع فارق الحجم طبعًا ـ فيها الفجالة الخاصة بها،

وفيها وسط البلد، وحى (الحسين) الخاص بها .. إلخ .. لكنها فى (لندن) ظاهرة محيرة ..

كانت زوجة طالب الدكتوراه اللامع (سمير عبد الرحيم) مصرية ودودًا ـ ابنة خاله بالمناسبة ـ أعدت لنا تلك الأطباق المصرية التى أحب أكلها وأمقت هضمها .. وراحت تطعمنى كأننى فرس النهر، ثم جلست إلى طرف المائدة مع ابنها ذى الستة أعوام، فقط كى ترى إن كنت أريد شيئًا آخر .. قلت لها بفم ملىء بالطعام :

ـ « ألن تأكلى ؟ »

فقالت كلامًا كثيرًا مكررًا عن الرجيم والسمنة .. إلخ .. ابتسمت وواصلت الأكل .. وأنا أحاول تجاهل الشيطان الصغير الجالس على ركبتيها، والذى ما انفك يقلد طريقتى فى الأكل ..

بعد العشاء رحنا نتكلم فى كلام كثير فارغ لا أول له ولا آخر .. طبعًا لم يكن الفتى كما قال يحب (لندن) لكنه راح يحكى عن انبهاره برجل الشرطة الذى مشى

وراءه فى الشارع يجمع قشور اللب المتساقطة منه ـ ولم أسأله طبعًا من أين اشترى اللب هنا ـ والكاميرا التى نسيها على مقعد الحافلة ذات الطابقين وكيف أعادوها إليه بعد ربع ساعة ، مع خطاب شكر من الملكة ، ووسام ومبلغ ألف جنيه إسترلينى لأنه إنسان رائع .. الخلاصة : قال لى كل ما يقوله من يعيش بالخارج للقابعين بالداخل ..

قلت له باسمًا وأنا اعتصر قدح الشاى طلبًا للدفء :

ـ « لاتنس أننى حاصل على الدكتوراه من إنجلترا .. ليست البلاد بجنة الله فى الأرض كما تصفها .. إنها بلد أوروبى له كل مزايا وعيوب أى بلد آخر .. وعلى كل حال لقد فررت أمس من مجنون تحرش بى فى المترو ! وبمعجزة كدت أتلقى علقة ترد فى كتب الأساطير .. »

ابتسم بدوره وقال :

ـ « لابد أنه سكير .. إن الخمر هى السوس الذى

ينخر فى هذا المجتمع وبنائه الأسرى والاجتماعى .. ولكن ماذا كان يريد منك ؟ ما هو موضع الاحتكاك ؟ »

ـ « لاشىء .. كان مقتنعًا بأنهم فى كل مكان .. وأن الشرطة لا تعلم .. »

ـ « هم ؟ من هم ؟ »

ـ « هناك (هم) دائمًا .. لابد من ذلك .. لكنه وجدنى قليل الحماس ـ وربما قليل الأدب ـ وثار لكرامته .. ولولا تدخل رجل شرطة لهشم وجهى .. »

ضحك (عمرو لطفى) كثيرًا حتى دمعت عيناه ، ثم قال وهو يحتضن طفله :

ـ « يجب أن تتعامل مع هؤلاء بأكبر قدر من الحرص ، وأن تشعره بأنك مهتم بكل حرف يقول .. »

ـ « حاولت هذا .. لكنه كان يريد أن أصرخ هلعًا وأبكى وألطم خدى من فرط خطورة ما يعلمه .. »

ونظرت للساعة المعلقة على الجدار ، والتى تشير

عقاربها إلى العاشرة مساء .. حقًا أطلت البقاء هنا ، والفتى من الطراز التقليدى الذى ينام مبكرًا .. لهذا أفرغت ما بقى من شاى فى جوفى ، ونهضت شاكرًا له هذه الحفاوة والطعام الممتاز .. وجاءت ربة الدار من المطبخ بذراعين ملوثتين بالصابون الذى لم تفلح فى مسحه فى مريولتها .. وصافحتنى برسغها وهى تؤكد أن الوقت ما زال مبكرًا .. لكننى شكرتها ولثمت الطفل الذى أظهر الاشمئزاز من البلل الذى أحدثته على خده ..

تناولت معطفى من على المشجب وارتديته ، وكنت قد ابتعت طاقية صوفية لزوم تدفئة الصلعة فوضعتها على رأسى .. فى (لندن) يبدو منظرى معقولاً ، لكن لو رآنى أحد فى مصر لحسبنى مخبرًا يؤدى عمله جيدًا .

وأخيرًا وجدت نفسى أنشق هواء الليل البارد الذى ينخر نخاع العظام ذاته ..

* * *

بعد رحلة مرهقة بالمترو عدت إلى شقتى فى (ميدل إسكس) .. فتحت الباب وأضأت النور .. كنت أتجمد بردًا وشعرت بحاجة ماسة إلى بعض الشاى .. لاشىء كالشاى الساخن فى هذا الليل البريطانى الذى يجمد الدماء فى العروق ..

كالعادة طبعًا لم يكن هناك شىء منه فى الدار .. الشاى من الأشياء التى لاتوجد أبدًا حين تريدها ، وهو فى هذا يتصرف كرجال الشرطة والمال .. ارتديت معطفى وقفازى من جديد وقررت أن أهرع إلى المتجر الذى يديره باكستانى على قارعة الطريق .. ولو لم يكن الباكستانى يبيع شايًا فماذا يبيع إذن ؟

نزلت إلى الشارع البارد ، وكانت الأمطار قد بدأت تهطل ببطء ينذر بالويل لكل الحمقى الذين لن يعودوا لديارهم خلال ساعة ، الشوارع زلقة مبتلة لكنها كشوارع الإسكندرية لايتجمع فيها الماء أبدًا ..

كان المستر (كليم الله) واقفًا فى المتجر يرتجف كعادته ، فدخلت وألقيت عليه تحية المساء ، ثم طلبت

بعض الشاى .. الكثير منه ، كما انتقيت بضعة معلبات تصلح للعشاء اليوم وغداً ..

- « برد .. برد شديد .. »

قالها وأسنانه تصطك ، فاصطكت أسنانى مجاملة له ، ودفعت الثمن بأنامل توشك على الإصابة بقضمة الصقيع برغم القفازين .. ومن مكانى سمعت صوت سرينة ما ، لعلها الإسعاف أو سيارة شرطة .. ثمة حادث وقع فيه أشخاص متحمسون ..

قال وهو يضغط على أزرار آلة النقود :

- « لابد أنهـا عصـابات الشـباب اعتـدت علـى أحد .. هذا يحدث كثيراً هذه الأيام .. »

ثم - بالصدفة الغريبة - قال وهو يضع النقود فى درج الآلة :

- « إنهم هنا .. فى كل مكان .. أعرف هذا .. »

قلت له الجزء التالى من القصة :

- « الشرطة تنكر وجودهم لأنها لا تعلم .. »

- « بل هى تعلم لكنها لاتملك العدد الكافى من الرجال .. لايمكن أن تعين شرطياً يحرس كل مواطن .. »

وأخرج سكيناً طويلاً يوشك أن يكون سيفاً ، من الطراز الذى يفتح به الجزارون عندنا بطون من يناقشونهم فى التسعيرة ، وقال وهو يلوح به تحت حنجرتى :

- « لكنى أتحسب لهم .. دع أى أحمق منهم يأت ولسوف يرى ! »

لم أشك فيما قال ، فهو من الطراز الباكستانى حار الدماء ، الذى يبكى بسهولة ويقهقه بسهولة ، ويقتل بسهولة عند الانفعال .. حييته وحملت حاجياتى وخرجت إلى الشارع من جديد ..

عرفت أنه أمام باب مترو الأنفاق الذى تهبط منه إلى الرصيف ، تقف سيارتا شرطة وسيارة إسعاف .. هذا هو سبب السرينة إذن .. الأضواء الملونة لاتكف

عن الترقرق فوق معالم المكان ، وتنعكس فوق الأرض المبتلة .. ورجال الإسعاف يحملون على محفة ما جسداً مغطى بملاءة ملوثة بالدم ، بذلك الشكل الذى يوحى بأن صاحبه لن يتعب الأطباء بعد اليوم .. لقد جاءوا به من الداخل .. من محطة المترو ذاتها ..

لا أحب هذه المناظر ، لذا ابتعدت عنها .. فلست من هواة التطهير Catharsis برؤية أغلظ وأشنع ما يمكن أن تصل إليه الأمور .. ولم يكن هناك مارة بسبب الأمطار لهذا كان الرجال على راحتهم إلى أقصى حد ..

فجأة سمعت النباح ..

ونظرت إلى جوار جدار المحطة .. فوجدت كلباً صغيراً مضحكاً فى حجم الأرنب ، ينبح بصوته الهش الرقيق ، وفى حالة عصبية غير طبيعية ، وكان لا يكف عن الركض هنا وهناك .. ويلاحق المحفة بعينيه وجسده الصغير ..

ورجال الإسعاف يحملون على محفة ما جسداً مغطى بملاءة ملوثة بالدم ..

واقشعر جلدى عندما فهمت ..

الآن لا حاجة بى إلى أن أكشف الملاءة كى أعرف من ينام على المحفة ..

* * *

٥ ـ شاى وسردين وكلب وجريدة ..

(تعرفون بالطبع هذه المواقف)

القانون الرابع :

الباقون منا ليسوا أخوة لك .. الباقون هم أنت ..

* * *

مازلت فى الشارع أرمق هذا المشهد المؤلم الكئيب ..

بالطبع لم أجسر على الدنو لسؤال رجال الشرطة عن كيفية موت الفقيد ، لأن رجال الشرطة البريطانية شديدو الكفاءة لكنهم ليسوا ودودين على الإطلاق ولا يحبون الفضول .. هذا بالطبع ما لم يحملونى إلى (سكوتلانديارد) لاستنطاقى عن سبب تواجدى هنا ..

لم يكن أحد يهتم بالكلب .. فى عاصمة الكلاب فى العالم

لايشكل هذا الكلب الصعلوك اليائس أى ثقل ولا يلاحظه أحد ، وقد أوشكت أحذية القوم الثقيلة على هرسه أكثر من مرة فى حركاته الهستيرية غير المنسقة ..

فى النهاية اندلعت السرينات ثانية ، وتحرك ركب السيارات .. ووجدتنى أقف وحدى تحت الأمطار أرمق الشارع الخالى جوار محطة المترو ..

حقًا لم أستطع التخلى عن الكلب الصغير .. لم أستطع قط .. لقد مات (أبوه) وصار يتيمًا لايعرف لنفسه مكانًا فى هذا العالم القاسى الممطر .. ودون كلمة أو إطالة تفكير انحنيت وحملته حملاً مع الشاى والمعلبات ، ففى كل كبد رطبة أجر ..

كان فى حالة نفسية سيئة وقد حاول التملص منى مرارًا أو عقر يدى ، لكنى كنت أرتدى القفاز ، وكان ضعيفًا هشًا كالأرنب كما قلت .. ولحسن الحظ كان عواؤه من الطراز الواهن الذى لن يجعل الجيران يشكوننى إلى الشرطة ، وكل الجيران الإنجليز - إن لم تكن تعلم - يعشقون إبلاغ الشرطة عنك لأى سبب ..

عدت لدارى وفتحت الباب وألقيت بالكلب على الأرض إلقاء .. لا أنوى الاحتفاظ به طويلاً لكن من حقه أن يرحل حين تنتهى الأمطار .. فتحت علبة من السردين وضعتها كما هى على جريدة أمامه .. لكنه لم يبد أى اهتمام بها .. راح ينبح ويتحرك بتلك الحركات العصبية التى تثير الذعر فى نفوسنا كأنها النذير ..

لو كان هذا الكلب محترمًا - ولا أظنه كذلك - فلن يذوق الطعام حتى يموت ويلحق بصاحبه .. قلت له بالإنجليزية العامية كى يفهمنى :

- « حاول أن تتمالك .. صاحبك كان سكيرًا ومهشمًا ، ولا أعنى بذلك أنه استحق ميتة شنيعة كالتى لابد أنه مر بها ..

لكن المجتمع لم يخسر الكثير بفقده ، ولو كنت مكانك لنسيته .. الكلاب الذكية هى التى تعرف متى تبدأ البحث عن سيد جديد .. »

لكن هذا لم يحسن حاله كثيرًا ، الأمر الذى أكد لى أنه

WWW.LILAS.COM

لايتقن إلا لهجة (الكوكنى) التى كان صاحبه يتكلم بها .. قدمت له شيئًا من اللبن وجلست أتأمله وأفكر فى الموضوع ..

طبعًا صاحبه مات .. وموته لا علاقة له بما قاله لى (عنهم) ، فمن الذى يعير كلمات مجنون أهمية من أى نوع ؟ فى الغالب انزلقت ساقه تحت المترو فى الوقت غير المناسب ، وعلى كل حال أعتقد أن صحف الصباح ستكتب شيئًا ما عن الحادث .. ولكن ....

ما هذا الشىء الأحمر فى عنق الكلب ؟ وكيف لم أره من قبل ؟

ركعت على ركبتى وربتّ على عنقه لأتفحص هذا الشىء .. إنه جرح دام بالفعل .. لكن الدم تجلط فلم يعد ينزف .. جرح قبيح جدًا ، ولو كنت طبيبًا شرعيًا لقلت إنه بفعل أسنان حادة .. لكنى لست والحمد لله طبيبًا شرعيًا وإلا لامتلأت رعبًا ..

كيف حدث هذا ؟ ومن يجرؤ على عض كلب ؟ الأمر

واضح جلى إذن ، وهو أن هناك ذئبًا أو كلبًا مسعورًا من نوع ما يجول فى أنفاق المترو .. هل هو الذى قتل الرجل ؟ هل اشتبك معه الكلب الصغير محاولاً إنقاذ صاحبه ؟ لا أعرف حقًا ، لكن على أن آخذ هذا التعس إلى طبيب بيطرى غدًا .. لابد أن هناك واحدًا قريبًا ..

أما الآن فقد حان وقت النوم .. لقد تأخر الوقت حقًا ..

* * *

فى الساعات الأولى من الصباح التالى ساءت حالة الكلب كثيرًا ، وراح يرتجف ويئن ويتشنج .. ولم أعد أعرف ما يجب أن أعمل به .. أنا طبيب لكنى لا أعرف شيئًا عن الحيوانات العجماء ولا أفهم إن كان هذا الكلب مريضًا أم حزينًا .. وقد حاولت معه كثيرًا جدًا لكنه لم يتحسن ..

وبعد ساعة لفظ أنفاسه الأخيرة .. لم يكن احتضاره

سيئاً أو قاسياً بل بدا لى كأنه وجد الراحة أخيراً .. الحق أنه كان مشهداً أليماً وجد مكانه على الرف بين ذكرياتى السيئة على كثرة ما رأيت فى حياتى .. وكنت أحسب أننى لن أتأثر كثيراً لوفاة كلب بريطانى ..

حين انتهى الأمر وجدت نفسى أمام المأزق الأكبر: كيف تتخلص من جثة كلب فى (لندن)؟! من السهل هنا أن يقتل المرء زوجته ويدفنها فى الحديقة، ويزرع فوق قبرها بعض زهور (الجلاديولس) التى كانت تحبها، لكن من المستحيل أن تتخلص من جثة كلب دون أن تنقلب (لندن) عليك ويظهر لك رجال الرقابة الصحية من كل صوب، ولربما اتهمونى بقتله وقضيت عمرى فى السجن ..

المهم أننى تخلصت من الجثة بطريقة شبيهة بأساليب رجال المافيا، وتمكنت من إلقائها فى الفناء الخلفى فى هذه الساعات الأولى من الصباح، مع تغطيتها بالكثير من أوراق الجرائد وأوراق الشجر وأية أوراق أخرى ..

عدت لفراشى وغرقت فى النوم العميق المليء بعربات

المترو والكلاب والمجانين .. وحين صحوت من النوم كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً .. لقد تسبب حادث أمس فى إفساد كل جدول مواعيدى لهذا اليوم ..

نزلت إلى الشارع إلى نفس المتجر الباكستانى فابتعت بعض الصحف لهذا اليوم، وعدت إلى دارى لأطالعها مع الإفطار المتأخر ..

بعد تدقيق وقراءة ممعنة تمكنت من العثور على الخبر الذى كنت أريده .. هذا رجل ناقص الأهلية - بلا اسم - تم العثور على جثته مساء أمس فى محطة المترو فى (ميدل إسكس)، ويبدو أن سبب الوفاة نوبة قلبية .. لكن الجثة كانت تحمل آثار أسنان .. كأنما هاجمها وحش ما بعد الوفاة .. وهذا ذكر الصحافة بحادث مماثل وقع منذ يومين لفتاة إنجليزية بيضاء تدعى (إليزابيث مورتون)، وجدوها ميتة وجثتها تحمل آثار أنياب .. كأنما تعرضت لهجوم كلب مسعور، وفى الوقت ذاته أبلغت صديقتاها السلطات عن تعرض الثلاثة لمطاردة من بعض الأوغاد مسلحين بكلبين ضخمين ..

إن أى شىء يمكن أن يحدث فى (أنبوب) لندن هذا .. لكن الآن يمكن القول إن الكلاب هى من فعلها فى المرتين .. مع العجوز لم يكن بوسع قلبه تحمل الضغط العصبى .. وهاجمه الكلب بعدها .. بينما الفتاة هوجمت حية ، ولدينا هنا شهادة صديقتيها ورأى الطبيب الشرعى الذى - بالطبع - لايخدع فى هذه الأمور .. ثمة ضحية ثالثة هى الكلب البائس الذى توفى من ساعات ، وإن كنت لا أفهم حقًا كيف مات من جرح لا أراه سيئًا إلى هذا الحد ، وعضات الكلاب ليست عاجلة السمية مثل عضات الأفاعى .. لا بد أن فرصته كانت صفرًا وهو بين أنياب الكلاب الحقيقية الأخرى ..

معنى هذا أن هناك كلبًا شرسًا لايقل هولاً عن كلب بريطانى آخر هو آل (باسكرفيل) .. يبدو أن (البلد ذاهبة إلى الكلاب) فعلاً كما اعتاد الإنجليز المتحفظون أن يقولوا .. هذا الكلب يمرح حرًا طليقًا فى شبكة المترو العملاقة .. لا ليس حرًا .. بل إن له سيدًا مجنونًا ساديًا يطارد به خلق الله ..

قلت لنفسى إن علىّ ألا أستعمل المترو فى الأيام القليلة الباقية لى هنا .. لقد كففت عن الإيمان بقاعدة (يحدث للآخرين فقط) من زمن ، وصرت متأكدًا من قاعدة جديدة هى (يحدث لرفعت إسماعيل فقط) .. لو كان هناك مجنون يملك كلبًا متوحشًا فى مترو أنفاق العاصمة البريطانية ، فسوف أقابله بالتأكيد ..

على كل حال ستجده الشرطة حتمًا .. إنهم أكفاء قادرون ، ولا بد أن أكثر من كمين ينصب الآن لهذا الرجل الذى لا أتمنى أن أكون مكانه .. أرى بعين الخيال الفتاة الشقراء الحسناء التى تعمل مع رجال (سكوتلانديارد) وتتم مراقبتها بعناية ، بينما هى تمشى وحدها بعد منتصف الليل فى شبكة مترو الأنفاق الرهيبة .. ولسوف يبتلع الأحمق الطعم ، ولسوف يهاجمها بكلبه .. عندها .. ارفع يديك .. لاتتحرك ! لا أدرى إن كان رجال الشرطة هنا يطبقون اتفاق (ميراندا) الأمريكى ويقولون للمتهم : من حقك أن تلزم الصمت ، وكل ما تقوله قد يتخذ

ضدك فى المحكمة .. لا أدرى إن كانوا يقولون هذا أم ينهالون ضربًا على المتهم دون مناقشة .. لكنه بطة ميتة فى كل الحالات ..

* * *

نزلت فى المساء إلى المتجر لأبتاع شيئًا للعشاء .. صحيح أن ما اشتريته أمس لم ينفد ، لكنى مازلت أتوق إلى شىء ما لا أعرف كنهه .. إن عالمنا بلا فول وفلافل هو عالم لا يستحق الحياة فيه .. أعرف أن هناك مطاعم للمصريين فى أكثر من مكان ، لكنى لا أريد ركوب المترو فى ساعة كهذه ..

خرجت من عند البقال حاملاً كنوزى ، وكان المطر قد بدأ يهطل معطيًا جوًا بهيجًا بعد كل ضباب النهار .. مشيت عند الناصية التى تقود إلى مدخل محطة المترو ، حيث كنت أمس أرمق سيارة الإسعاف .. و ...

شعور غريب ينتابنى بأننى مراقب ..

كيف يشعر الإنسان أنه مراقب ؟ ومتى تنبت له هاتان

العينان فى مؤخرة عنقه ؟ إنهما موجودتان منذ الأزل لكنه لايعرف بوجودهما ، وأحيانًا يطلق عليهما الحاسة السادسة ..

ونظرت للظل الذى يرميه عمود النور المضاء على الأرض المبتلة ، فعرفت أن حاستى السادسة ممتازة ..

هنا سمعت من يقول بلهجة الكوكنى التى يصعب فهمها :

ـ « أنت سرقت كلبى أمس !! »

* * *

٦ ـ أن تدخل النفق ..

القانون الخامس :

الفطر لا ينمو إلا فى الظلام ، ونحن لا نقوى إلا حين نخفى سر الأسرار ..

* * *

كان هو بشحمه ولحمه القليلين .. هو نفسه المجنون الذى قابلنى فى المترو .. صاحب الكلب .. قتيل أمس !

الماء ينساب من حاجبيه الكثين ومن شعره .. فيضيق عينيه أكثر ليتمكن من أن يرانى جيدًا ..

أجفلت وتراجعت للوراء كأنما أرى شبحًا .. إنه يترك ظلاً على الأرض فهو على الأقل ليس خدعة بصرية .. هل هو ؟

ثم فطنت إلى ما لم أفطن له من قبل .. من قال

إنه مات ؟ الصحف لم تنشر صورته وأنا لم أر الجثة على المحفة .. فقط اعتبرتها قضية مسلمًا بها أنه مات ، لأن الكلب كان فى حالة تثير الإشفاق ، وكان يطارد المحفة ملهوفًا ..

لم أدر ما أقول لكنه واصل الاتهام بشكل واضح :

ـ « أنت سرقت كلبى .. رأيتك أمس تحمله .. »

قلت وأنا أحاول أن أكون هادئًا :

ـ « أنا لم أسرقه .. كان مجروحًا وأخذته لأرعاه .. ولكن أين كنت أنت ما دمت رأيت هذا كله ؟ »

ـ « كنت متواريًا بعيدًا عنهم ، ولم أجرؤ على اللحاق به .. لأنهم كانوا سيعرفون !! »

فهمت .. دائمًا (هم) .. (ماركس) فسر التاريخ بأنه (محاولة إرضاء الشهوات) ، بينما هذا الرجل الفيلسوف يفسر كل شىء بأن السبب الوحيد (هم) ..

عاد يسألنى بإلحاح عدوانى وهو يترنح :

- « وأين هو ؟ هل هو بخير ؟ »

ابتلعت ريقى وقد أدركت أن لحظة الحقيقة قد جاءت .. كيف سأخبره بهذا ؟ دعك من أنه مجنون ، فمن الجلى أن الصديق الوحيد له فى الكون كان هذا الكلب .. ليتنى ما نزلت أمس لشراء الشاى ، ولا الليلة لشراء البقالة ..

- « كلبك مات ! نعم مات .. تعذب كثيرًا أمس طيلة الليل لكنه مات .. »

كنت أتكلم بينما وجهه يكتسى بالهلع والذعر والذهول .. شفته السفلى ترتجف وعيناه جاحظتان .. ثم تهاوى على ركبتيه كما فى مسرحيات قصور الثقافة عندنا ، وراح ينشج ويهتز أمامًا وخلفًا .. كان بكاؤه يمزق نياط القلوب ، ونظر لنا أحد المارة فى فضول عابر لكنه لم يعرنا اهتمامًا ، لأن من حقك فى (لندن) أن تجثو على ركبتيك وتلطم الخدين ، دون أن يلتف حولك الشارع كله ..

أما ما فعله بعد ذلك فهو أغرب شىء توقعته .. لم يمسك بخناقى أو يصرخ طالبًا الشرطة .. فقط راح يركض متجهًا إلى محطة المترو ، وهو يردد بلا كلل :

- « سأريهم ! سأريهم !! آه ! لا أحد يقتل كلبى ويظل حيًا .. يحسبوننى سهل الهضم .. هه ! »

لقد جن هذا الرجل تمامًا .. أعرف من البداية أنه مجنون ، لكنه لم يفقد صوابه بعد إلى حد الجرى بهذا الشكل .. لاشك فى أن مشكلته تكمن هناك فى محطة المترو ، وأنا لا أفهم بعد حقيقة ما حدث أمس لكننى سأحاول منع هذا الأحمق من إيذاء نفسه .. لاشك فى أنه سيلقى بنفسه فى التهلكة .. سواء كانت هذه التهلكة على يدى من آذاه أمس ، أو تحت عجلات المترو ..

مشيت حثيثًا من خلفه .. خطوت فوق أولى درجات السلم الكهربى وتركته يحملنى لأسفل ثلاثة الطوابق المكونة لمترو (لندن) ، ورحت أضرب بعينى ذات اليمين وذات اليسار .. لم أره فى أى مكان .. أين توارى ؟ من العسير أن تجد أحدًا فى هذه الشبكة العملاقة المعقدة ..

وعلى السلم الكهربى الصاعد كانت مجموعة من الراهبات ، وسيد عجوز متأنق نظر لى فى كراهية .. ثم بعدها بدا أنه ما من مخلوق بشرى فى هذه المحطة ..

وقفت وحيدًا فى الرصيف الخالى أنظر يمينًا ويسارًا .. الحق أنه مكان مخيف حقًا بعد كل ما اكتسبه من سمعة فى الفترة السابقة .. لحسن حظى أننى لست محتاجًا إلى ركوب هذا الشىء .. لحسن الحظ ..

(هل هذا صوت عواء)

إن بوسعى الآن أن أعود لدارى وأتساءل عن مغزى ما قاله هذا الرجل .. وفجأة رأيتهم قادمين من بعيد ..

(لابد من أن أرحل حالاً)

لايوحى منظرهم بالثقة أبدًا .. هؤلاء مجموعة من الأوغاد تكره بالتأكيد أن تفوتها فرصة التلذذ بتعذيب شخص مثلى ..

رحت أجد السير مبتعدًا عنهم ، متحاشيًا لحظة

الانفجار .. حين أعلن أنا أننى ضحية مذعورة ، ويعلن هؤلاء عن كونهم وحوشًا .. للأسف إن نهاية الرصيف قريبة .. لن أتجاوزها أبدًا لأنه من الواضح أن هذا ما يريدون ..

وقفت ناظرًا لهم فى ثبات وتحسست جيب المعطف ..

(حمدًا لله أنه معى ..)

وانتظرت حتى دخلوا مجال إبصارى المتهالك .. كانوا ثلاثة لهم ملامح وعليهم ثياب الهيبى .. والهيبى فى كل مكان من (لندن) فى هذه الحقبة ، لكنهم فى الغالب مسالمون خاملون أشر ما فيهم رائحتهم ..

لكن هؤلاء الثلاثة لم يكونوا من محبى السلام ولا من هواة الخرز والزهور .. كانت الشراسة على ملامحهم واضحة جلية ، وعلى أنف كل منهم عوينات سوداء تخفى نواياه وعواطفه ..

كاذبًا قلت لهم بصوت حاولت ألا يرتجف :

ـ « ليس معى نقود إن كنتم تبغونها .. لكن معى بعض البقالة .. فهل تأخذونها ؟ »

وكنت أعرف جيداً أن النقود لاتكفى هؤلاء ولو كانت ملايين .. إنهم بحاجة إلى عنف .. بحاجة إلى ضربى وتهشيم عويناتى وتجريدى من المعطف ، ثم إلقائى فى الليل البارد بالخارج كى أصاب بالتهاب رئوى ..

قال أطولهم قامة بأغرب لكنة سمعتها منذ جئت هنا :

ـ « من أنت أيها الأجنبى كى تكتبه على قبرك ؟ »

ـ « أنا دكتور (رفعت إسماعيل) .. ولا أحب أن يكتب اسمى على قبرى بحروف لاتينية .. »

نظر الفتى لمن حوله ، وقال ساخراً :

ـ « آه .. دوك !! لكننا لا نبغى البقالة يا دوك .. إن الدماء هى ما نبغى ! »

لم يعد من مهرب أمامى .. ومن جيب المعطف أخرجت المسدس ، وعالجت ترباس الأمان فيه .. كنا فى الأعوام السعيدة ـ قبل أن يصير خطف الطائرات عادة ـ حين كان بوسعك أن تسافر بالطائرة حاملاً سلاحاً .. وأنا لم أستعمل هذا الشىء ببراعة قط ، ومازلت أعطى

وأنا أحمله انطباع المهند ـ بفتح الدال ـ لا المهند بكسرها .. لكنه كما يقولون (صيت لا غنى) ..

لم يترك لى الفتى طويل القامة خياراً لأنه وثب علىّ كالفهد .. وفى اللحظة ذاتها أغمضت عينى ، وأطلقت رصاصة .. طاخ !! تردد صوتها فى كل أرجاء المحطة ممزوجاً بالصدى ، لكن من الواضح أن أحداً لم يسمعه لأن المترو كان يدخل المحطة فى هذه اللحظة بالذات واختلط الضجيجان ..

لابد أننى أصبته .. لابد أنه جرح جرحاً بليغاً .. لم أعرف الحقيقة قط ، لأن الضربات انهالت علىّ من الجهات الست .. ركلات .. لكمات .. سيوف يد .. وتهشمت عويناتى .. ثم طار المسدس من يدى بضربة عنيفة بشىء معدنى ..

وسمعت من يسبنى بأقذع السباب ، ويقول وهو يغرس مخالبه فى وجهى :

ـ « تلعب دور الرجل القوى ، هه ؟ لكن اللعبة لاتعلم فى المدارس يادوك ، وليست فيها بدايات متأخرة .. »

لأن الضربات انهالت على من الجهات الست .. ركلات .. لكمات .. سيوف يد .. وتهشمت عويناتي ..

وفى اللحظات التالية غبت عن الوعى تمامًا .. لكنى كنت أفيق من آن لآخر لأدرك أن هناك من يجرنى على الأرض جرًا .. يد تنقلنى ليد أخرى .. ظلام دامس يغلفنى ، لكن الأيدى مازالت مستمرة فى مهمتها .. أشعر كأننى جرح كبير مفتوح .. وأتساءل : ترى هل ثقبوا رئتى ؟ وهل تحطمت الضلوع ؟

رباه .. لو ظللت حيًا فاترك لى بعض الأسنان فى فمى .. لا تدعهم يسقطونها جميعًا ..

إنهم ينقلوننى .. لكن لأين ؟

وساد الظلام بعدها فلم أعد أدرى أين أنا ..

* * *

٧ ـ أن تكون معهم ..

القانون السادس :

عاملهم بأشرس ما تستطيع ، فالقسوة رحيمة أحيانًا ..

* * *

أول ما لفت نظرى هو رائحة العطن ..

رائحة عفنة قوية كاسحة تتسلل إلى الخياشيم وتجعل كل تنفسى عملية بطولية .. وكتمت أنفاسى ، لكن لم أستطع .. ثانى شيء لفت نظرى هو أننى محاط بالظلام ، وأننى ممدد على أرض رطبة ، وأخيرًا رأيت بعض المشاعل حولى فأدركت أن هناك بشرًا ..

كانت الكدمات تملأ جسدى ، وكلما حركت أصغر جزء ممكن ـ وليكن جفنى ـ كنت أشعر بأننى أنجزت عملاً بطوليًا يستأهل مكانه فى تاريخ الملاحم .. لاتوجد

كسور أو هذا ما أعتقده ، وأنا أتنفس جيدًا دون ذلك الألم الحاد الشنيع المميز لكسور الضلوع ..

الآن وقد اطمأننت نوعًا إلى أداء الآلات ، بقى أن أعرف أين هذه الآلات ؟

سمعت من يقول بصوت رتيب وبلهجة عجيبة :

ـ « أنت بخير أيها الغريب .. ستعيش .. »

إن الظلام غير عادل .. إنه يجعلك فى وضع واه هش .. وربما لهذا يحب رجال الاستجوابات أن يضعوا المتهم فى غرفة مظلمة ويسلطوا عليه الكشافات .. نظرة واحدة فى النور ستسمح لى بأن أفهم كل شيء وأتخذ عدتى .. أما الآن فأنا لا أعرف إن كنت فى قبو أم فى الإسكيمو .. ولا إن كنت محاطًا ببشر أم غيلان ..

قلت فى الظلام :

ـ « أريد أن أشرب .. »

شعرت بشيء يلمس شفتى .. هذا سائل لكنه .. لا .. إنه مر الطعم لاذع قليلاً .. فتقلصت شفتى اشمئزازًا .. ومن جديد جاء الصوت :

- « نحن لانشرب الماء هنا أبدًا أيها الغريب .. »

كنت قد خمنت أن هذا نوع من الخمور فى الغالب .. لكنى أريد ماء قراحًا أيها الحمقى .. ماء .. من جديد قال الرجل :

- « لقد تعلمنا صنع هذا المشروب ، لكننا فى البدء لم نكن نعرف شيئًا على الاطلاق .. وفى الأيام الأولى كنا نشرب بولنا .. نيا ها ها ها هاه !! »

وانفجرت الضحكات من كل صوب .. هذه مزحة راقية إذن وأنا لم أعرف هذا .. واضح من الضحكات أن هناك نحو عشرة هنا ، وهم لايتمتعون بالرقى للأسف لأن ضحكاتهم تذكرنى بضحكات الجالسين فى غرزة (شيحة) عندنا .. هل تعرف هذا النوع من الضحك الذى ينتهى دومًا بالسعال والبصاق على الأرض ؟

- « حاولوا أن تجدوا له بعض الماء .. »

وتحرك أحد المشاعل فبدأت أرى الوجوه بوضوح أكثر ، وإن كنت أنظر من دون عويناتى طبعًا .. كانوا

رجالاً .. لاشك فى هذا .. لكن النظرات الوحشية المسعورة فى العيون البراقة ، والوجوه المتسخة التى كادت اللحى فيها أن تلمس الأرض .. والثياب التى تشبه الأسمال .. كل هذا جعل من العسير أن تعرف أن هؤلاء رجال .. ومن رابع المستحيلات أن تعرف عمرهم .. اللحية المشعثة المختلطة بالشيب تعطى كل الرجال مظهر الستين ..

كما أن الأمراض الجلدية لم تكن نادرة هنا .. لقد ميزت نحو ثلاث إصابات فطرية .. هذا الأنف المتآكل والأصابع المتساقطة لدى محدثى .. أتراه الجذام ؟ هذا فى الظلام فقط ، ولو سطع النور لاستطعت أن أجد عشر إصابات أخرى ..

أما عن المكان فأدركت أننا فى شىء يشبه النفق .. ليس كهفًا لأن جدرانه منتظمة وهناك مواسير ماء عتيقة هنا وهناك .. هذا مكان صنعه الإنسان ..

سألتهم وأنا أشعر بأن النور لم يحسن الرعب كثيرًا :

- « من أنتم ؟ »

لم يرد محدثى ، وقال فى تؤدة :

- « أنت قلت إنك طبيب .. »

- « أذكر شيئًا كهذا .. »

- « إن عليك أن تعالج ما أحدثته يدك فى (توماس) .. إنه ما زال حيًا ويتألم كثيرًا .. بعد هذا ستعالجنا جميعًا .. »

عدت أسأله وأنا أحاول أن أستجمع جسدى المبعثر على الأرض :

- « أين نحن ؟ »

- « تحت الأرض أيها الغريب .. تحت الأرض .. ثق أن أحدًا لن يجدك لو كنت تفكر فى هذا .. »

- « ومن أنتم ؟ »

نظر لمن حوله واهتزت لحيته ضحكًا .. بعد قليل قال :

- « سمنا العشيرة .. هذا اسم كاف على ما أظن .. »

بعد قليل تحرك أحدهم فى الظلام ووضع تحت فمى قدحًا صدئًا .. لامسته بشفتى فى حذر فشعرت بمذاق الماء الساخن .. صحيح أنه ليس أنقى ماء فى العالم ، لكنه يصلح ..

سألت فى حذر قبل أن أشرب :

- « هل أنت متأكد من أنكم كففتم عن شرب البول ؟! »

لم يضحك ولم يعلق .. فقط قال وهو ينظر ليده :

- « ليس بولاً .. والآن عالج (توماس) .. »

تحركت دائرة المشاعل لتحيط برجل منهم على الأرض .. تحركت على ركبتى لأدخل الدائرة وتفحصته فى اهتمام .. وكان نائمًا وسط بركة صغيرة كريهة الرائحة ..

على الفور تذكرته .. إنه الفتى فارع الطول الذى أطلقت عليه الرصاص ، والذى كان ينادينى (دوك) .. كان شاحب الوجه منهكًا لكنه لا يكف عن الأنين .. وعرفت على الفور أن كتفه ممزقة وقد تلوث قميصه بدم متجلط

غزير .. لقد نسيت الجراحة تمامًا ، لكنى أعرف على الأقل أن هناك رصاصة يجب أن تنتزع ، وجرحًا يجب أن يطهر ..

قلت لهم :

ـ « يمكن إنقاذه .. لكن ليس هنا ومن دون أية مطهرات أو أدوات .. »

ـ « اطلب ماتشاء ولسوف يحضره لنا (توماس) .. وتذكر أن حياتك مرهونة بما ستفعله وما ستكتبه فلاتحاول خداعنا .. »

نظرت للجريح وقلت :

ـ « كيف تتوقع من هذا أن يجلب دواءه لنفسه ؟ »

ـ « لن يذهب هو .. ظننت كلامى واضحًا أيها الغريب .. سيذهب (توماس) ، فمنظره مقبول قليلاً بالنسبة لمن فوق .. »

ـ « (توماس) آخر ؟ »

ـ « نعم .. كلنا هنا (توماس) ! »

نظرت له فى غباء .. كل المجموعة تحمل ذات الاسم .. هذا شيء يصعب فهمه بالنسبة لى .. ماجدوى الأسماء إذن ؟ لقد قابلت موقفًا مشابهًا مع (شعب الأطياف) لكن كان معهم حق وقتها ، فهم لم يكونوا بشريين .. لكن ما الذى يدعو مجموعة من البشر بعد عصر لختراع اللغة كى يفعلوا هذا ؟

كان قلمى ما زال فى جيب المعطف الداخلى .. كان المعطف الآن فى أسوأ حال ، وبدا أنه مجموعة من الثقوب يربطها خيط ما ، لكن القلم لم يتهشم بعد ومعه المفكرة .. فتحت المفكرة بينما قرب منى أحدهم المشعل ، وعلى الضوء المتراقص كتبت أول عقار أريده .. وتمنيت لو كان بوسعى أن أطلب عوينات جديدة كذلك .. لكنى حاولت التغلب على هذه النقطة بالتقطيب الزائد ، وهى طريقة يعرفها ضعاف البصر الذين يرفضون استخدام العوينات ..

لو كان هؤلاء القوم ـ العشيرة لا ضعاف البصر طبعًا ـ لايعرفون القراءة فإن فرصة جميلة تنتظرنى .. إن الغد يبهج حقًا .. لكن علىّ أن أتأكد ..

سألت (توماس) الذى يبدو مظهره مقبولاً كما

قالوا ـ ليس (توماس) لكنه (توماس) .. لا داعى للخلط ـ وأنا أقرب المفكرة من أنفه :

ـ « هل الخط واضح ؟ »

نظر للورقة نظرة كنت أتوقعها .. نظرة خاوية غبية مسطحة ، وقال :

ـ « جميل .. جميل .. استمر فى الكتابة .. »

وهكذا عرفت ما لى وما على ، وكتبت ما أريد من أدوات ، ثم كتبت فى النهاية بخط واضح :

حاول أن تجعل الشرطة تعتقل حامل هذه الورقة أو تراقبه .. لأننى سجين تحت الأرض فى قبضة زملائه ، ولا أعرف حقًا من هم ولا أين أنا .. اسمى دكتور (رفعت إسماعيل) .. عنوانى هو ....

وانتزعت الورقة وناولتها لـ (توماس) فنظر لها بعينين لا تفقهان .. ثم نظر لى محذرًا :

ـ « إياك والألاعيب ! »

قلت له :

ـ « بالنسبة لسعر الدواء ، فلست متأكدًا .. لكنى واثق من أنك لا تمـ... »

دون كلمة واحدة مد يده فى جيب معطفى وانتزع الحافظة .. وفتحها وكبش كل ما كان فيها من مال ـ ولم يكن ثروة لكنه كثير ـ ثم ألقاها فى وجهى بإلقاء .. واختفى من أمامى .. هذا الفتى لا يتكلم ولكن يفعل ، وهى صفة حميدة فى الرجال ..

نظرت للرجال كريهى الرائحة المحيطين بى ، وسألتهم فى كياسة :

ـ « هل من مكان آخر هنا ؟ أعنى مكانًا به منضدة أو ضوء أو أى شىء مناسب .. هذا ليس بالضبط ما يطلق عليه مكان لو فهمتم ما أعنيه .. »

سمعت من الظلام من يقول لى :

ـ « ليس من مكان إلا هذا أيها الغريب .. لكنه رحب كالعالم كله .. كل ما تحت (لندن) ملكنا .. يحسبون أن لهم ما فوق الأرض ، لكنه ملكنا كذلك .. »

ـ « فهمت .. »

سمعت صوت صرير من مكان ما .. وعلى الفور

اتجهت المشاعل إلى مكان الصوت ، ورأينا فأرًا كبيرًا يتسلق ماسورة الماء محاولاً الوصول إلى مكان ما أكثر أمنًا .. لكن المشاعل جعلته واضحًا كسحابة تعبر أمام الشمس .. بل كالشمس ..

ـ « (توماس) .. إنه لك !! »

قالوها فى حماسة مفاجئة ، ولم أفهم ماسيحدث ولاكيف حدث .. لكنه حدث .. لقد هرع الأخ (توماس) ـ هذا (توماس) غير الأول والثانى والثالث ـ وتسلق الماسورة كالقرد وراء الفأر الذى لم يصدق مايجرى .. وبسرعة البرق هوى بقبضته عليه ليلتقطه من ذيله ، ويقهقه مرحًا ..

أما المشهد التالى فإننى لن أحكيه لكنك تستطيع استنتاجه ..

ماذا فعل (جوناثان هاركر) حين عاد مضيفه (دراكيولا) من الخارج ، حاملاً العشاء الذى كان طفلاً رضيعًا ؟ لقد صرخ وصرخ ثم فقد الوعى .. لكننى

لم أنل هذا الترف .. تعرفون أنكم لا تفقدون أبدًا الوعى حين تريدون هذا ..

هؤلاء القوم لن يجوعوا أبدًا .. كيف يجوع آكل الفئران إذا عاش فى قبو قديم ؟ بالضبط كما أن الحمل لايجوع أبدًا فى مرعى خصيب .. ولكن من هم ؟ ماسبب هذه الحياة التى يحيونها ؟

ماذا يريدون منى ؟

على كل حال يمكن أن نتأكد من أن لهم علاقة وثيقة بالناس الذين يختفون فى محطات المترو ، وفى الغالب هم من كان العجوز يتكلم عنهم .. إنه يعرف .. لكن يعرف ماذا ؟

كنت غارقًا فى هذه الخواطر أحاول ألا أنظر إلى الأخ (توماس) الذى كاد يفرغ من عشائه ، وأختلس النظر إلى المصاب الذى يرقد مغمض العينين لايكف عن الأنين .. هنا جاء (توماس) الذى أرسلوه لإحضار الطلبات ، وتناول مشعلاً كى يرينى ما جاء به ، بنفس

الأسلوب الذى يتبعه المرضى عندنا حين يعودون للطبيب بالعلاج الذى اشتروه من أقرب صيدلية ، حتى لا يعطيهم الصيدلى سماً بدلاً من الفيتامين على سبيل المزاح ..

راح يرص أمامى ما طلبت : جفت .. مبضع .. زجاجة مطهر .. علبة من المضاد الحيوى .. ضمادات .. ورحت أراجع كل شىء فى ذهنى .. كان آخر ما وضعه أمامى هو الجزء الأخير من الوريقة التى أعطيته إياها .. الجزء السفلى الذى كتبت عليه استغاثتى .. وقال بوجه لاحياة فيه :

- « هذه هى رسالتك فاحتفظ بها .. لقد استعملت الوصفة فقط ! »

لم أجرؤ على السؤال ، لكنه رآه فى عينى فقال :

- « كيف عرفت ؟ الأمر سهل أيها الغريب .. نحن لانقرأ لكننا لسنا أغبياء .. نعرف أنك أرسلت استغاثة معنا .. لو لم تفعل لكنت أحمق .. وكان يجب أن تكتب أصناف العلاج فى حالة ما إذا لم يستجب الصيدلى

لو لم يفهم .. لذا كتبت بضع كلمات كل واحدة فى سطر .. ثم انتهت الورقة بسطرين كاملين لايشبهان بقى الورقة .. فتقطع ذراعى إن لم يكن هذان السطران هما الاستغاثة ..

« لم يكن من داع للمخاطرة .. مزقت هذا الجزء الذى يبدو شاذاً فى الورقة على سبيل الاحتياط .. وأعتقد من نظراتك أننى لم أكن مخطئاً .. »

لم يكن ثمة داع للإنكار .. إنهم حقاً - كما قال - ليسوا أغبياء ..

أخذت شهيقاً عميقاً ، وقلت للفتى الجريح الممدد على الأرض :

- « سيكون هناك الكثير من الألم .. الكثير جداً .. »

قال لى (توماس) الواقف جوارى :

- « لاداعى للمواعظ أيها الغريب .. لقد اعتدنا الألم حتى لم تعد نطيق الحياة من دونه .. »

وهكذا بدأت العملية القاسية ..

* * *

٨ ـ أسطورة العشيرة ..

القانون السابع :

كنا منهم .. اليوم صاروا لنا .. غداً يصيرون فينا !

* * *

لم يكن ما قمت به جراحة رائعة تدخل التاريخ إلى جوار جراحات (هالستد) و (لستر) .. لكننى على الأقل فعلت ما طلب منى ، ولم ينزف الفتى كثيراً ..

قال لى (توماس) وهو ـ كما لاحظتم ـ لم يتكلم حتى هذه اللحظة :

ـ « الآن أيها الغريب سندخل إلى مستوى آخر من الشبكة .. »

لم أفهم ما يعنيه ، لكنى وجدت هؤلاء القوم يحملوننى حملاً أو يجروننى جراً عبر النفق .. قلت كلاماً ما

عن الألم الذى يمزقنى .. عن الجريح الذى يجب تحريكه برفق .. عن .. آى !

لم يتركوا لى مجالاً للمناقشة ، وإنما راحت الأيدى القوية تتناقلنى كالشىء .. وأدركت أنهم يهبطون من مرتفع إلى آخر ، لنجد أننا فى النهاية مغمورون حتى الخصور فى سائل لزج كريه .. وهنا أدركت الحقيقة التى غابت عنى كل هذا الوقت .. نحن فى المجارى !! نحن فى شبكة المجارى العملاقة العتيقة تحت (لندن)، وهذا الذى نسبح فيه هو إذن ؟!!!!

ـ « لحظة ! أنا لا أريد أن أمشى هنـ... »

لكن هؤلاء لم تكن مهمتهم الأولى تنفيذ أحلامى ..

لم يكن من ضوء إلا من المشاعل التى يحملونها فوق مستوى السائل ، وبدا لى أنهم ينعمون بوقتهم حقـاً ، بينما لم أستطع أن أتجاهل فكرة أننى أعيش كابوساً مجسماً له ملمس ورائحة ..

فى نهاية الممر الكريه كانت هناك كوة عالية عن مستوى السائل ، فتسلقها أحدهم ، ووقف هناك ومد يده يعيننى على الصعود .. وسرعان ما كنت أدخل الكوة وأزحف على ركبتى .. يا للاشمئزاز !! لو كان بوسعى أن أغمس جسدى كله فى حمض النتريك المركز لفعلت الآن ..

أما المكان الذى دخلناه فلم يكن أفضل حالاً من ناحية الظلام .. لكنه كان مزودًا بمشاعل من الداخل .. وأدركت أنهم يقيمون هنا فى الغالب .. وسرعان ما تبينت أن هنا رجالاً آخرين .. بل ونساءً .. بل وأطفالاً ..

الكل كان جالسًا على الأرض أو منهمكًا فى أكل شيء ما ، ويرمقنى فى فضول وكراهية .. وكان الجميع يرتدى أسمالاً بالية قذرة لا يمكن أن تعرف لونها الأصلى .. اللون الذى تجده على ثياب صبية الميكانيكية عندنا ..

فى ركن المكان كانت هناك ماسورة مياه عتيقة تهبط من أعلى وتصب تيارًا من ماء دافق يبدو أنه

فى نهاية الممر الكريه كانت هناك كوة عالية عن مستوى السائل ، فتسلقها أحدهم ، ووقف هناك ومد يده يعيننى على الصعود ..

نقى .. والماء ينحدر إلى أسفل ، ليحتشد على الأرض ثم يجرى فى تيار منتظم نحو فتحة أخرى جوار الحائط ..

قال لى (توماس) :

ـ « يمكنك أن تستحم هنا لو أردت أيها الغريب .. »

جميل أن أستحم .. لكن من العسير أن أنزع ثيابى أمام غرباء ، ناهيك عن النساء الموجودات .. ثانيًا : لم يكن الجو قد صار دافئًا فجأة .. صحيح أن باطن الأرض كان أكثر دفئًا من الهواء الكاسر فى الخارج ، لكن ما زال الاستحمام بماء بارد جهدًا بطوليًا ..

دنا (توماس) منى ووضع يده على قفاى وصاح بلهجة غريبة :

ـ « هذا طبيب .. صحيح أنه آذى (توماس) ، وجرحه لكنه أصلح ما أفسدته يداه ، وإننى لأرى أن نتركه بعض الوقت هنا .. فالأمراض تفشت فى العشيرة ، ونحن بحاجة لواحد .. وأؤكد لكم أنه لن يهرب .. »

هنا نهضت امرأة من بين الجالسين .. أقول إنها

امرأة فقط على سبيل الدقة التشريحية ، لكن الرجال كانوا أكثر منها رقة وفتنة ونظافة .. دنت منا وهى تغرس مخالبها فى شعرها تهرش ، كأنما تحاول انتزاع فروة الرأس ذاتها ..

دارت حولى ومدت مخالبها تعتصر ذراعى ، وقالت فى خشونة :

ـ « إنه هزيل كطفل .. ضعيف كهرة وليدة .. أرى أنه لن يستطيع الهرب .. »

قال لها (توماس) فى كياسة :

ـ « أعرف يا (توماس) أنه لو فعل لانتزعت حنجرته بأسنانك .. »

غريب هذا .. حتى النساء هنا اسمهن (توماس) .. هؤلاء القوم مخابيل إذن ، وهذه المرأة أكثرهم جنونًا ..

حنت رأسها ليصير شعرها أمام عينى يوشك أن يلمس أنفى ، وقالت :

ـ « لو كنت طبيبًا فقل لى ما هذا الذى أصاب رأسى .. »

لم أجتز امتحاناً منذ الدكتوراه ، لهذا انتابني التوتر للحظة ، ثم تذكرت أنني لست مطالبًا بإرضاء هؤلاء القوم .. لكن أي طفل يمكنه تشخيص حالتها على كل حال .. الأماكن الخالية من الشعر في رأسها كانت عدوى فطرية .. هذا طبيعي بالنسبة لقوم يعيشون في المجاري كما رأيت .. ولعل هذا أهون الشرور ..

وعلى الفور جاء أكثر من واحد يعرض عليّ شيئًا مماثلاً .. الآن تأكدت أن هناك أكثر من ثلاث حالات جذام في هذا المجتمع العجيب .. هذا ما يبدو على السطح ، فماذا عن الأمراض الخفية ؟ عمومًا حالات الجذام المشوهة هي حالات (محروقة) لم تعد معدية .. بينما الخطر كل الخطر في المريض الذي يبدو مثلي ومثلك ، ولايميزه سوى بقعة خفية مخدرة في مكان ما من جسده .. إنه ينفث البكتريا مع كل زفير ..

قلت لهم وأنا أحاول ألا استنشق الهواء الملوث :

ـ « سأكتب لكم العلاج الذي أستطيعه .. لكن هناك أمراضًا متقدمة هنا ، ولايمكن علاجها إلا في مستشفى .. »

وضع (توماس) ـ (توماس) آخر لا تعرفونه ـ يده على كتفي وقال في رفق :

ـ « يجب أن تحاول أيها الطبيب .. لابد من أن تمنحنا سببًا يبرر إبقاءك حيًا .. »

كان الأحمق يحسب علاج الجذام هو مرهم وقرصان يبلعهما ..

عدت أسألهم وأنا أتوقع الأسوأ :

ـ « ماذا تأكلون ؟ أنتم بالطبع لا تنوون تركي أقضي جوعًا .. »

ـ « هناك فئران في كل مكان فلا تقلق ! »

كنت أتوقع هذا .. لكن ما الذي يرغم هؤلاء القوم على أكل الفئران إذا كان الخروج للعالم الخارجي بهذه السهولة ؟ واضح تمامًا أن الأخ الذي ذهب إلى الصيدلية لم يبذل جهدًا أكثر مما يحدث في العالم العلوي .. من السهل إذن أن يشتري لهم مخزونًا كافيًا وأكياسًا من البقالة وأرطالاً عديدة من اللحم والدقيق ..

وكأنما سمع أحدهم ما أفكر فيه (وهى ظاهرة يبدو أنها موجودة لديهم فعلاً، كأنما حياة الظلام أرهفت حواسهم)، فقال لى:

ـ «لقد اعتدنا لحم الفئران لعقود .. فلم نعد نتحمل (طعامهم) .. لكننا سنجلب لك طعامًا يصلح لك .. »

وهكذا تم كل شىء بسهولة راقية .. كتبت لهم ما أريد من أدوية .. إن ما أخذه منى (توملس) يكفى الجميع، ويكفى لأن أعالج العشيرة كلها على حسابى .. وفى هذه المرة لم أحاول أية ألاعيب .. إنهم أذكياء والغباء كل الغباء أن افترض أننى أذكى منهم ..

ثم إننى نهضت إلى صنبور الماء المتساقط .. ونزعت من ثيابى ما هو ممكن .. لقد تغلب الاشمئزاز على الحياء .. ورحت أزيل كل هذه القذارة عن بدنى .. من الغريب أن الماء كان دافئًا كما كان الماء الذى شربته منذ قليل .. تخلصت من المعطف فلم يعد ممكنًا أن أعيد ارتداءه قبل غسله بإحكام، وغسلت السروال و(البول ـ أوفر) وكل مكان تسرب إليه السائل المقزز، ثم ـ بالطبع ـ

لم أجد حلاً إلا أن أرتدى الثياب وأتركها تجف علىّ، مع ما فى ذلك من خطر ..

قال لى أحدهم وهو يرمقنى فى فضول ودهشة:

ـ «تبدو مهتمًا أشد الاهتمام بالخلاص من هذه الرائحة .. نحن لم نعد نشمها أيها الغريب .. لقد نسينا رائحة الهواء النقى ذاته .. »

ثم أردف وهو يشير إلى أحد المشاعل الذى وضعوه مستندًا إلى جدار:

ـ «تعال واجلس جواره وحاول أن تجف سريعًا .. »

سألته وقد بدأت أرتجف بحق:

ـ «المياه ساخنة ؟»

ـ «نحن نشعل جوار الماسورة نارًا من حين لآخر كى تبقى المياه دافئة غير متجمدة .. ولو لم نفعل لما وجدت ماء أصلاً .. وعلى كل حال لن تطول فترة النيران .. »

ـ « لماذا ؟ هل تنوون الانتحار ؟ »

ـ « لا أحد ينتحر منا أيها الغريب .. لكن الهواء هنا نادر ، وليس من الحكمة أن نتركه للنيران تتنفس به .. لهذا نطفئ المشاعل ، ونخمد النيران فى هذه الساعة من كل يوم .. سنتركها لك بعض الوقت إلى أن تجف .. »

وجلست جوار المشعل أحاول أن أتحول إلى شرنقة آدمية ، أو أن أدخل الشعلة ذاتها .. طبعًا لم أجف .. لا أحد يجف بهذه السهولة .. لكن البلل بدأ يكتسب بعض حرارة جسدى ..

وبعد قليل عاد (توماس) بلفافة تحوى بعض الخبز والجبن ، فألقاها فى حجرى .. وعاد ليتخذ مكانه وسط رجال العشيرة .. الكل يرمقنى فى دهشة .. كيف يأكل هذا الأحمق شيئًا ليس لحم فئران ؟ نفس الدهشة التى نرمق بها من يأكل الثعابين ..

يبدو أننى نمت وأنا مستمر فى الأكل .. لأننى حين صحوت فيما بعد وجدت الطعام مازال فى يدى وفمى ..

* * *

لا أدرى كم من أيام مرت علىّ فى ضيافة العشيرة ..

لايوجد هنا نور ولاساعات .. لقد تلفت ساعتى من قبل محطة المترو .. لكننى استطعت الحكم من درجة خشونة لحيتى أن لى هنا ثلاثة أيام مرت كقرن طبعًا ..

يمكننى الآن أن أصف لك حياتهم بشكل أكثر دقة ..

إنهم جماعة لايتجاوز عددها الخمسين .. عدد النساء قليل نوعًا بالنسبة للذكور .. ربما لو فرضنا أن الذكور ثلاثون والأطفال عشرة فالنساء مابعد سن البلوغ عددهن أقل من عشرة .. قلة عدد الأطفال مبررة طبعًا لأن من العسير أن يكتمل حمل فى هذا المناخ غير الصحى ، فإن اكتمل كانت الولادة شبه مستحيلة ، فإن تمت فمن العسير ألايموت الطفل خلال عام .. هذا جو لم يخلق للأطفال ..

كانت المجارى كلها ملكهم ، وهم يعرفونها كديارهم ويتنقلون فيها بحرية تامة .. لكنهم يختارون أمكنة فسيحة بعيدة عن البلل ليعيشوا فيها من آن لآخر .. وحياتهم الاجتماعية لاتتجاوز الجلوس والصمت والبحث عن الحشرات فى رءوس الأطفال ..

كما قلت هم لا يأكلون إلا الفئران والحشرات التى تعج بها المجارى، ولاوجود للطهى عندهم.. ويصنعون شرابًا ما – نوعًا من الخمر – من بقايا الخبز التى يجلبها أحدهم من الخارج، فهم كما قالوا لايشربون الماء أبدًا، لكنهم بالطبع لا يستغنون عن الماء كأى كائن حى.. وإن كنت لا أعرف نفعه لهم فهم لايغسلون ثيابهم ولا يستحمون، أو لم يسعدنى الحظ برؤية أحدهم يفعلها..

لايوجد سلم طبقى أو اجتماعى، لكنهم يثقون بـ(توماس) – وهو (توماس) آخر فلاداعى للخلط – الذى يكبرهم سنًا، ويبدو أنه من يضع القوانين ويشرف عليها هنا..

بعض هؤلاء القوم يحلقون لحاهم ويلبسون ثيابًا نظيفة نوعًا هى أقرب إلى ثياب الهيبى.. هؤلاء – مثل (توماس) – يعملون كجنود الاتصال أو السعاة بين هذا العالم والعالم الفوقى.. ويبدو أنهم أكثر رقيًا وتحضرًا إلى حد ما.. ومن الواضح أن لهم مكانة عظيمة فى

هذا العالم باعتبارهم يطلعون على أعظم أسرار العدو.. طبعًا لو خرج أحد هؤلاء الأرضيين إلى الشارع البريطانى لتوقف المرور، وتصايح الناس هلعًا، ولحمله رجال الشرطة إلى المصحة العقلية حالاً..

هل من وجود للدين فى حياتهم؟ بالطبع لا.. لكنى أدركت أنهم يمارسون نوعًا من عقيدة عبادة الأسلاف التى مارستها كل الشعوب البدائية تقريبًا.. الأجداد والآباء موجودون ليراقبوهم ويحموهم ويؤنبوهم إن اقتضى الأمر على سبيل العقاب..

وفى مجتمع كهذا لاتوجد نقود طبعًا.. ما جدواها؟ لكن التعامل مع العالم الخارجى يتم بطريقة سهلة مريحة: نقودى! نقودى العزيزة التى لن تعود للأبد يشترون بها كل مايلزم من دواء.. لكنهم – والشهادة لله – يشترون لى طعامًا أيضًا، ولا أعرف ماسيحدث يوم ينتهى هذا المخزون..

أما عن ملامح هؤلاء القوم فهى إنجليزية تمامًا.. لايمكن أن تخطئ هذا.. لكن حياة الظلام والخوف

والقذارة حولتهم إلى وحوش كاسرة تخيف الناظرين .. بالإضافة إلى تطورات بيولوجية لا أعرف متى ولاكيف حدثت .. إنهم يرون جيدًا فى الظلام .. ولايتحملون ضوء الشمس أبدًا كمصاصى الدماء ..

هل اتضح الآن كل شىء ؟

بالطبع لا ..

أولاً : لم أفهم بعد من هم هؤلاء القوم ، ولا لماذا يعيشون تحت العاصمة المتحضرة كأنهم فى عصر الكهوف ..

ثانيًا : لم أفهم ما علاقة المجارى بمترو الأنفاق .. هاتان شبكتان منفصلتان أتم الانفصال ..

ثالثًا : ـ وهو الأهم ـ ما هى خططهم بالنسبة لى ؟

* * *

٩ ـ عشاء خاص جدًا ..

القانون الثامن :

لا أحلام لنا إلا البقاء يومًا آخر .. ولا ذكرى لنا إلا ميلاد العشيرة ..

* * *

إن لدى عيبًا خطيرًا أصارحكم به ، فأنتم لم تعودوا غريبين عنى ..

أنا أمقت أكل لحم البشر .. بل ـ والأدهى ـ لا أطيق وجبات العشاء التى يكون عمادها لحم البشر ..

متى عرفت أن العشيرة من أكلة لحم البشر ؟

لم يتأخر هذا الاكتشاف كثيرًا ، لأن لحيتى لم تنمُ إلى حد أن تتحول من خشونة إلى لحية ..

كنا بعد منتصف الليل ، وقد عرفت هذا لأنهم حين قال (توماس) وهو ينظر للرجال نظرة ذات معنى :

- « حان الوقت .. سيذهب (توماس) و(توماس) و(توماس) .. كونوا حذرين لأن الشرطة بالتأكيد وضعت كمائن فى عدة أماكن .. لاتطمعوا فى الضحية الهشة التى تقول: أنا ضحية .. فتاة تمشى وحدها أو رجل تبدو عليه مخايل الثراء .. أنا أتركهما وشأنهما ولا أنصح إلا بهذا .. ابحثوا عن المتشردين .. ابحثوا عمن يبدو عليه الفقر ولايهم أحداً إن مات أم عاش .. »

ابتسمت فى سرى وقد تذكرت ما تخيلته عن كمائن (سكوتلانديارد) .. هؤلاء القوم كما قلت ليسوا أغبياء أبداً .. من الجلى أن ذكاءهم صنعته الفطرة وحياة الأخطار ، فهم لم يشاهدوا فيلماً سينمائياً ولم يقرءوا جريدة ..

سأله (توماس) وهو ينهض ويرتدى ثياب العمل :

- « هل نأخذ الكلاب ؟ »

- « لا .. إنها تعوى وهذه نقطة ضعفها .. عليكم الاعتماد على أنفسكم .. »

نهض الرجال وقد تحولوا بالضبط إلى الصورة التى رأيتهم عليها من قبل : فتية هيبى مشاغبون .. يبدو أنهم اختاروا هذا التنكر بالضبط لأنه أقرب إلى شكلهم الحقيقى ولن يكلف الكثير من الجهد .. بالطبع لم يكن (توماس) الذى جرحته معهم .. فهو مازال ناقهاً .. وكانت جروحه فى أسوأ حال ممكن لأن من المحال أن يلتئم جرح فى هذا الجو ..

وبعد دقائق اختفوا فى قلب الظلام ..

لم أدر عم يتحدثون ولا ماذا يريدون بالضبط .. لكنهم بالتأكيد يحملون ساعات عصيبة لبائس ما اختار إحدى المحطات فى هذه اللحظة .. لكنى مازلت لا أفهم علاقة المجارى بالمترو ..

رحت فى سبات مضطرب كدأبى منذ وصلت إلى هنا .. كوابيس تتداخل مع رؤى مع هلاوس مع أضغاث أحلام مع مشاهد مضطربة للقوم من حولى ..

وكان آخر مارأيت مشهد الرجال يحملون شيئاً ما ..

ومشاعلهم المترقصة تحيط به، وتلقى على وجوههم تعبيرات شيطانية مريعة .. رأيت جسدًا آدميًا يبدو أنه رجل .. نهضت غير مصدق وفركت عينى مرتين .. لم أصدق أن هذا سيحدث وتمنيت أن أكون فقدت عقلى..

وسمعت (توماس) يسألهم :

ـ « أتراه أتعبكم ؟ »

ـ « لا .. لقد سقط من أول ضربة .. والمحطة كانت خالية .. »

وعلى الفور احتشد الجميع كالذئاب جالسين القرفصاء حول ما كان رجلاً من قبل .. لا داعى لوصف المشهد طبعًا لأننى أنا نفسى لا أحب أن أتذكره .. فقط أذكر أننى قلت بصوت واهن والتنفس يرهقنى بحق :

ـ « أنتم لا تفعلون هذا .. لا أصدق أنكم تفعلون هذا ! »

قال لى (توماس) وهو منهمك فى عمله البغيض :

ـ « لم لا أيها الغريب ؟ إن البروتين ـ كما تسمونه ـ هو البروتين .. تجده فى الدودة والفأر والخروف والإنسان .. لكن الإنسان الواحد يكفى لتغذية العشيرة كلها بينما نحتاج إلى عشرات الفئران لتشبعنا .. وليس بوسعنا تربية الماشية هنا لو كنت تفهم ما أعنيه .. »

ـ « أنتم .. أنتم .. تفعلون هذا من زمن ؟ »

ـ « لا .. هذا هو التجديد فى قائمة الطعام الذى أدخلناه من عام .. ولكن لا تخف .. ستظل حيًا حتى نقرر أننا لم نعد نحتاج إليك .. »

وصاحت (توماس) المرأة الشرسة إياها :

ـ « إنه نحيل كقملة .. ولن يشبع طفلاً .. »

هنا فقط كان تماسكى قد انتهى .. وأعلن جهازى العصبى الباراسمبثاوى أنه الأقوى .. تهاويت على الأرض فاقد الوعى، وأظن أننى قبلها صرخت حتى بح صوتى..

* * *

الآن صارت الحقيقة واضحة أمام عينى ..

العشيرة مجموعة من الغيلان لا أكثر ، ومصير هؤلاء الذين اختفوا فى المترو أسود من أى شىء يتخيله رجال (سكوتلانديارد) .. يجب أن أفر .. يجب ..

ولكن كيف ؟ حتى لو تركونى فلسوف أضل طريقى فى شبكة المجارى الرهيبة هذه ..

فى مساء اليوم التالى جلست جوار الجدار أرمق السقف المظلم ، ولم يكن هناك إلا ضوء خافت قادم من مكان ما ، عليه رأيت (توماس) يدنو ليجلس جوارى .. كان يعرق قطعة عظم باقية فلم أجسر على النظر ..

سألته فى اشمئزاز :

- « من أنتم ؟ »

راح ينظر لبعيد ، ثم قال :

- « القصة طويلة أيها الغريب .. عمرها مائة عام .. لا أدرى إن كان من الصواب أن أحكيها ، لكنى أعرف

أنك لن تخرج من هنا إلا ميتًا سواء قتلناك نحن ، أو جاءك الأجل .. »

هنا سمعت صراخ (ليزا) ..

* * *

كانت فى الثلاثين من عمرها .. كانت جميلة أنيقة أو هذا ما استطعت رؤيته فى الظلام .. جاء بها (توماس) - وهو يختلف عن أى (توماس) آخر - وهو يحملها على كتفه كما يفعل رجل الكهف مع أنثاه .. كانت تصرخ كصفارة إنذار .. وكانت تعض كحيوان (الولفرين) .. وتخمش كالقط البرى ..

لكن القوى لم تكن متعادلة قطعًا .. وفى النهاية تلقت بضع صفعات ، ثم وجدت نفسها على الأرض تحيط بها النساء الشرسات ، وبعضهن جلس فوقها ليمنعها من الحركة .. واعتصر قلبى حين تخيلت ما رأته من أهوال .. من لحظات كانت عائدة لدارها ، والآن ... مثلى أنا بالضبط ..

قال (توماس) وهو يمسح الدم الذى سال من أنفه :

ـ « كانت على رصيف المحطة .. وخطر لى أن من الخسارة تركها .. »

ـ « أنت متهور .. فلربما كانت هذه هى كمين الشرطة المرتقب .. »

ـ « لو كانت كميناً فهم بارعون حقاً .. »

لن أتحمل المشهد التالى ، ولن أقدر على منعه .. لذا صحت فى (توماس) وأنا أشعر أن أحشائى تتقلص :

ـ « هل .. هل ستفعلون بها ما حدث لـ .. للرجل الذى ... »

قال باسماً من وراء ملامحه القاسية :

ـ « نحن لا نأكل النساء .. »

هدأت قليلاً وقد بدت لى بعض سمات الفروسية فى هؤلاء الغيلان لولا أن أردف :

ـ « نحن نعانى من نقص فيهن .. لذا نحضر أية فتاة هنا لنتزوجها !! »

حككت رأسى الأصلع محاولاً استيعاب هذه المعلومة .. حقاً ليس الموت أبشع مصائر الإنسان فى هذا العالم .. قلت له :

ـ « لحظة من فضلك .. هل تعنى أنكم سترغمونها على ذلك ؟ »

ـ « بل ستقبل بكامل إرادتها .. بضعة أيام من الجوع والضرب وترضى أن تصير من نساء العشيرة وأمًّا لأطفالنا .. إن نصف نسائنا جئن من هذا الطريق .. ولو انتظرنا حتى تكبر الصغيرات فسوف ننتظر طويلاً جداً ، بالإضافة إلى أن نصف العدد يموت .. لابد من أن نفعل كالبعوض .. ننجب ملايين الصغار كى يعيش منهم المئات .. »

كانت الفتاة الملقاة تحت كومة النساء تصرخ فى هستيريا .. سائلة تلك الأسئلة المملة على غرار : من

أنتم ؟ أين أنا ؟ الخ .. وهـذه هى مشكلة الإنسان .. كل واحد يعتبر نفسـه حالة فريدة ويعتبر أن من حقه أن يعرف .. من الخير لها ألا تعـرف بهـذه السـرعة فمازالت أمامها ساعات عصيبة مع العشيرة .. ستزداد حكمة مثلى .. حكمة من الخير ألا تنالها الآن .. كما أنه ليس من العدل أن تعلم الأطفال معنى الموت ..

نظرت لى وتساءلت فى رعب :

- « من أنـت أيها السيد ؟ تبدو لى مختلفًا عن هؤلاء القوم .. »

قلت لها فى تهذيب لا داعى له :

- « أنا سجين لديهم يا آنستى .. مثلك بالضبط .. اسمى (رفعت إسماعيل) .. طبيب مصرى .. وحاليًا أنا معـالج هـذه المجموعـة الممتـازة مـن السـادة المهذبين .. »

- « وماذا يريدون منا ؟ »

- « يمكننى أن أؤكد أنهم لن يقتلوك على الأقل .. »

كانت الفتاة اللقاة تحت كومة النساء تصرخ فى هيستيريا .. سائلة تلك الأسئلة المملة على غرار : من أنتم ؟ أين أنا ؟ إلخ ..

- « من هؤلاء ؟ هل هم غيلان ؟ ما سر هذه الوجوه الشائهة ؟ »

- « ثمة وباء من الجذام يجتاح هذا المجتمع الصغير .. فكرى فى الأمر كمستعمرة جذام أهلية لاتعرف الحكومة عنها شيئًا »

ولزمت الصمت .. لاداعى لمزيد من التفسيرات ترهق أعصابها ..

- « إنها جميلة !! انظر هذه القلادة ! هى ثرية كذلك !! »

قالت هذه الكلمات واحدة من النسوة اللاتى يكبلن الفتاة ، ورحن - كالضباع - ينتزعن كل ما لديها من حلى وزينة ..

وانتزعت إحداهن شعر الفتاة .. اتضح أنه جمة صفراء ضخمة ، ووضعتها على رأسها المتسخ وراحت تتمايل يمينًا ويسارًا فى دلال ، وهى تقهقه كالفتوات فى موقف (عبود) ..

قلت لها فى سرى : لاتخافى يا صغيرة .. بعد أيام ستكونين شرسة مثلهن وربما أكثر ..

عاد (توماس) يجلس جوارى ، وقال فى فخر :

- « النساء ! لن يتركنها تفلت أبدًا .. ماكنت لأضمن ذات النتيجة لو تركت رجلاً لحراستها .. »

قلت له وأنا أحاول تحاشى سماع صوت الفتاة :

- « مازلت لم تكمل قصتك بعد .. »

بصق على الأرض ، وقال وهو يداعب لحيته بمخالبه :

- « يمكنك أن تصغى أيها الغريب .. والفتاة كذلك ستسمع القصة كى لا أعيدها مرتين .. »

* * *

١٠ـ أسطورة العشيرة ..

(ثمة هاجس غامض يقول إننى استعملت هذا العنوان من قبل)

القانون التاسع :

لا أحد يملك .. لا أحد يأخذ .. فقط الطعام والشراب حق للجميع ..

* * *

بدأت القصة ـ والكلام هنا لى ـ من مائة عام ونيف ..

كانت إنجلترا هى جحيم العمال ، وكانوا يعيشون حياة الفئران أو أدهى قليلاً .. وهو الجو الذى أوحى لـ (كارل ماركس) و(انجلز) ـ وكلاهما كان يعيش فى إنجلترا ـ أن الشيوعية وثورة العمال على أصحاب العمل لابد أن تنشأ فى هذا البلد .. ومن الغريب أن إنجلترا صححت مسارها ، وظفر العمال بحقوقهم وأكثر ، بينما بدأت الشيوعية فى روسيا والصين وهى وقتها بلاد زراعية ..

المهم أن حال العمال فى إنجلترا كان فى الحضيض ، وحين كتب (هـ . ج . ويلز) قصته العظيمة (آلة الزمن) ، تنبأ بأن هؤلاء العمال الذين يعيشون تحت الأرض سيتحولون إلى وحوش قوية ، بينما السادة الذين يعيشون فوق الأرض سيتحولون إلى كائنات هشة غبية أقرب إلى الفراش أو الدجاج ..

فى هذا الجو الملحمى بالضبط كانت النساء يعملن ، والأطفال يختنقون فى المصانع ، والرجال يكدون خمسة عشر ساعة يوميًا بلا أجر يذكر ..

وفى اليوم الذى نتحدث عنه كان هناك خمسة عمال مع زوجات ثلاثة منهم ، يعملون فى شبكة المجارى العملاقة تحت (لندن) .. من الغريب أن تعمل النساء فى شبكة المجارى ، لكن هذا كان معتادًا وقتها ، وكان الرجال فى حاجة إلى اليومية التافهة التى تنالها زوجاتهم ..

متى حدث الانهيار ؟ لا أحد يذكر .. يبدو أن جزءًا من السقف كان هشًا ، وقد سقط فوق هؤلاء لكن أحدًا لم يمت ..

وحين أفاقوا من ورطتهم أدركوا أنهم سجناء .. أدركوا أنه ما من سبيل للخروج ..

قضوا أيامًا سوداء فى الظلام يصرخون ويحاولون الخروج .. لكن من الواضح أن العالم الخارجى نسى عنهم كل شىء .. ويبدو أن الانهيار لم يؤثر فى أرضية الشارع .. ربما جرت بعض المحاولات للبحث عنهم لكنها حتمًا لم تكن جدية إلى هذا الحد ..

يا لها من حياة !

إنهم يستعجلون الموت لكنه لايأتى .. وهم ينتظرون فى أقذر مكان فى (لندن) فى الظلام الدامس الذى بدأت عيونهم تعتاده ..

وفى النهاية قال أكبرهم سنًا وهو عامل من (ويلز) يدعى (توماس كوتون) :

- « يبدو أننا سنعيش .. لكن علينا أن نعرف كيف نفعل هذا .. »

وكان الدرس الأول الذى تعلموه حين فرغ ما معه

من ماء أن يشربوا البول .. والدرس الثانى أن يأكلوا الفئران .. لا أعرف حقًا كيف يستطيع الإنسان أن يفعل هذا ، لكن من الواضح أن عذاب الجوع والظمأ يفوق أى اشمئزاز ..

وبعد وقت قصير وجدوا شرخًا فى الجدار ينز الماء ، فانتهت مشكلة الظمأ بالنسبة لهم ..

وهكذا بدأت حياة من أغرب وأقسى مايمكن تصوره تحت (لندن) الغافلة المليئة بالمفكرين والحالمين والعلماء .. كانت هناك مجموعة من الأحياء تعيش فى شبكة المجارى وتحاول أن ترتب حياتها يومًا بعد يوم .. ومن الغريب أن تتصور مايصل إليه الإنسان من قدرة على التكيف مع الوقت ..

لم يتمكنوا من العثور على فتحات للخروج .. تحولوا مع الوقت إلى فئران تزحف فى الظلام .. بدأت الزوجات ينجبن .. ظهر أول جيل من رجال النفق .. ومن الطريف أن اسم الجميع كان (توماس) نسبة لمؤسس هذا المجتمع ، وكراهية للأسماء التى يحملها من يعيشون على السطح ..

ومع نمو الصغار كانت المبادئ الأولى قد بدأت تتشكل: نحن وحيدون .. السادة فوق الأرض تخلوا عنا .. نحن هنا بسببهم .. إنهم أعداؤنا للأبد ..

ومع مرور السنين بدأت فكرة العشيرة تنمو .. وكانت الحاجة لها ماسة مع ظهور كل الصغار الذين لم يروا النور يومًا واحدًا، والذين لم يعرفوا لهم وطنًا إلا هذه الأنفاق العطنة ..

صاغ (توماس) فكرة العشيرة وصاغ قوانينها العشرة .. وهي عبارات ملتفة جدًا يصعب فهمها لكنها تدور حول الفكرة ذاتها: رفض الآخر والاغتراب ..

القانون الأول: لا أحد سوانا .. لأنه لا أحد يقبل أن يكون منا .. (ومعناه ببساطة أننا لانبالي بالآخرين ولانعمل لهم أي حساب لأنهم يرفضوننا ..)

القانون الثاني: مايعرفونه لايعنينا أن نعرفه .. ومانعرفه لايصدقه أحد منهم .. (وهو واضح المعنى) ..

القانون الثالث: كل حياتهم لنا .. ودمهم مستباح .. لكننا لانبغي أموالهم لأنها منهم .. (مفهوم أيضًا) ..

القانون الرابع: الباقون منا ليسوا أخوة لك .. الباقون منا ليسوا أخوة لك .. الباقون هم أنت .. (معناه أن علاقة هؤلاء ببعضهم تتجاوز الأخوة .. إنها علاقة الذراع أو الساق بصاحبها) ..

القانون الخامس: الفطر لاينمو إلا في الظلام، ونحن لانقوى إلا حين نخفي سر الأسرار .. (دعوة للسرية والكتمان)

القانون السادس: عاملهم بأشرس ماتستطيع، فالقسوة رحيمة أحيانًا .. (هذا الكلام يعنينا .. العنف يخيف الناس ويمنعهم من التدخل في شئون العشيرة .. وبالتالي يقلل ما سيحدث لهم من أهوال) ..

القانون السابع: كنا منهم .. اليوم صاروا لنا .. غدًا يصيرون فينا! (كنا يومًا عمالا لديهم .. اليوم صرنا نخطفهم .. غدًا نأكلهم ونهضمهم ليصيروا جزءًا منا!!)

القانون الثامن : لا أحلام لنا إلا البقاء يومًا آخر .. ولاذكرى لنا إلا ميلاد العشيرة ..

القانون التاسع : لا أحد يملك .. لا أحد يأخذ .. فقط الطعام والشراب للجميع .. (وهذه اشتراكية فطرية) ..

القانون العاشر : من صار منا لايتركنا إلا إلى بركة الديدان .. إنه الآن حر .. (وهو تحذير مخيف لأمثالى .. بركة الديدان هى بالطبع مقبرة هؤلاء .. »

مر الزمن ومات الجيل الأول من الآباء .. إن التخلص من الجثث فى شبكة مجار ليس بالأمر العسير على كل حال .. وتكاثرت العشيرة فى ظروف بالغة الصعوبة .. وما كان لأحدهم تعامل مع الخارج ، لكن بمرور الوقت عرفوا أن بوسعهم ـ بالكثير من المخاطرة ـ الخروج من فتحات البالوعات الجديدة التى وضعتها البلدية .. وجرب بعضهم أن يخرج فأصابه الهلع من المدينة المعاصرة ، بالإضافة إلى أن نور النهار آلم عيونهم جداً .. ومالبث أن تعلم عدد محدود منهم أن ينتصر على

رعبه .. تمكنوا من سرقة بعض الثياب من شباب الهيبى الذين ينامون على الأرصفة ليلاً .. وصاروا يتنكرون من حين لآخر ويخرجون فى الليل .. هؤلاء هم (توماس) و(توماس) و(توماس) وطبعًا (توماس) .. لايمكن أن ننسى هذا الأخير ..

هؤلاء الذين خرجوا تعاملوا نوعًا مع الخارج ، ونقلوا بعض مصطلحات الحضارة إلى الداخل ، وكانت اللغة الإنجليزية لم تنقرض كما توقعوا .. صحيح أن لغتهم كانت عتيقة نوعًا ، لكننا فى (لندن) المعاصرة حيث يستعمل كل واحد لغة إنجليزية خاصة به ..

أما الاكتشاف الأعظم الذى عرفوه فهو مترو الأنفاق أو (الأنبوب) .. لقد تمكنوا من حفر عدة أنفاق تربط شبكة المجارى بشبكة المترو بعد مغادرته المحطة .. هكذا صار بوسعهم أن يدخلوا ويخرجوا دون مخاطرة ..

كان هذا حين بدأت الأمراض تتفشى فى المجموعة ، وبصفة خاصة الداء الوبيل الذى يقضى على الإحساس وتتآكل الأطراف منه (ومن المثير للتأمل أنهم فى الغالب

جلبوه من الخارج ، لأن الجذام لاينشأ من عدم) ووجد الرجال أن عليهم تغيير نوع الطعام لأنهم افترضوا أن طعامهم هو سبب ما فيهم .. إن الفئران لم تعد تناسب الجميع بالإضافة إلى قلتها .. ونبتت فكرة الاغتذاء على البشر .. هذا مصدر جيد للبروتين بالإضافة إلى ما يشعر به من لذة الانتقام ..

وكانت العملية سهلة نسبيًا لأن رصيف المترو كان يخلو من البشر عند منتصف الليل .. فقط لابد من واحد ينتظر المترو وحيدًا .. يمكن تخويفه ودفعه دفعًا إلى الأنفاق المظلمة حيث ينتظره الآخرون .. ويجرونه من أحد الأنفاق التى تقود إلى المجارى .. وهناك يكون العشاء ممتازًا .. لم يرفض أحد الفكرة لأن من يأكل الفئران يمكن أن يأكل أى شىء آخر .. وقد استخدموا الكلاب أحيانًا بعد ما حصلوا بالسرقة على ثلاثة جراء ربوها معهم .. وكانت الكلاب مفيدة دائمًا فى تخويف الفريسة أو مطاردتها ..

فى البدء جربوا أكل النساء ، ثم وجدوا أنهم بحاجة

لبعضهن كزوجات حتى لاتنقرض العشيرة .. رأيى أنه من الخير لها أن تنقرض ، لكن رأيهم يختلف على كل حال .. وقد خطفوا بعض الفتيات ، وعذبوهن ومنعوا عنهن الطعام ، حتى أصبن بنوع من غسيل المخ الكامل ، وانضممن إلى العشيرة .. وبعد سنين يصرن من المتحمسات المخلصات الكارهات للعالم الخارجى ..

بقى أن أقول إننى لم أعرف قط مصير المتسول الذى حذرنى من (هم) .. لكنى أعتقد أنه رآهم كثيرًا جدًا ، وكان يخشاهم .. وفى ليلة رأى عملية قتل لم تكتمل بأخذ الجثة إلى المجارى .. لابد أن الجثة شوهت وفر هؤلاء هاربين .. بينما حسبت أنا أنه هو القتيل .. كلبه الصغير تلقى عضة قاتلة من كلب أو إنسان لايهم .. المهم أنه مات .. أما الرجل فقد جرى إلى محطة المترو متكلمًا عن الانتقام .. فهل ظفروا به ؟

* * *

١١- إلى النور..

القانون العاشر:

من صار منا لا يتركنا إلا إلى بركة الديدان .. إنه الآن حر ..

* * *

كم يومًا مر علينا هنا ؟ لا أدرى حقًا ..

الفتاة ؟ إنها جالسة فى الركن متكومة على نفسها لاتفعل ولا تقول شيئًا .. فقط ترتجف ، وقد صار مظهرها مثيرًا للشفقة بعد كل ماسرقته النساء منها .. النساء اللاتى جلسن فى أحد الأركان يلتهمن فأرًا سمينًا ويتشاجرن عليه .. لم يقدم لها أحد شيئًا من الطعام ، لهذا انتهزت فرصة معينة ورميت فى حجرها بعض الخبز والجبن ، وأمرتها أن تأكل فورًا ..

ظلت ترمقنى فى غباء بعينين من زجاج .. وأنا لا أطيق الغباء حين يتعلق بحياتى ذاتها ..

- « كلى يا حمقاء .. إن هذا الخبز ليس له إلا مصدر واحد : أنا .. ولسوف يحرموننى منه لو عرفوا .. »

لكنها لم تقل شيئًا وظل الخبز ملقى هناك ..

- « آمرك أن تأكلى ! »

فلما طال الأمر مددت يدى ووضعت الطعام فى جيبى .. مادامت لاتنوى التفكير بطريقة عملية ، فلست مستعدًا للموت جوعًا بسببها .. ربما الموت بطريقة أخرى غير الجوع كذلك ..

جلست جوارها ، وقلت فى تؤدة :

- « ما اسمك ؟ أنا لم أعرفه بعد .. »

- « (ليزا) .. أنا سكرتيرة .. لكنى كنت أزور صديقة لى فى (هونزلو بيل) فى ساعة متأخرة .. »

ثم بعد صمت قالت لى :

- « هل لديك خطة ما للمستقبل هنا ؟ »

- « الهرب طبعًا .. لكنى لم أعرف كيف بعد .. حتى لو تركونى أهرب فلن أجد الطريق المناسب هنا ، وسأنتهى هيكلاً عظميًا وسط الماء الآسن .. »

نظرت للسقف وهمست فى غل :

- « لو كانت هناك فتحة مجارٍ قريبة لأريتهم .. »

هذا تفكير جميل .. لكن العقل البريطانى لايفهم أبدًا أن (لو) أداة امتناع لامتناع .. وأنها تفتح بابًا للشيطان .. وأنها .. حتى حيلتى القديمة بالتظاهر بالمرض لن تجدى لأنهم سيسرعون بالتهامى بنفس المنطق الذى يسارع فيه الفلاح إلى ذبح البقرة المريضة كى يفيد من لحمها ..

ثم حدث شىء غريب ..

* * *

لقد دخل أحدهم المكان الذى ننام فيه . فتحت عينى فعرفت أن هذا (توماس) ..

هرع ليوقظ (توماس) و(توماس) والآخرين .. ثم ركض ليطفئ المشعل الوحيد الذى كان ينير المكان ، وهمسًا صاح :

- « عمال المجارى ! تواروا بسرعة !! »

نهض الرجال والنساء ، وكممت الأمهات أفواه أطفالهن ليخرسن ، على حين صاح (توماس) وهو يخرج سكينًا عملاقًا :

- « غريب هذا .. لم يصل أحدهم إلى هنا منذ مائة عام !! »

- « لابد من مرة أولى .. »

وبالفعل سمعنا الضجيج لرجال يتكلمون عبر الممر التالى للمجاور لنا .. وبدأ هدير آلة ما لعلها مولد نور أو شفاط عملاق .. كانت تهز النفق الذى لم يهتز منذ دهور ..

قال (توماس) وهو يلوح بسكين آخر (لأنه توماس آخر) :

- « كم عددهم ؟ »

- « لا أدرى .. ربما هم ثلاثة أو أربعة .. »

- « إذن هناك ثلاثة أنصبة من اللحم لكل منا .. »

حتى أنا لم أستطع أن أظل أخرس أمام هذه الحماقة، وقلت فى كياسة :

- « ليست المشكلة فى قتل هؤلاء .. المشكلة أنه لابد من أن يبحث عنهم أحد .. و ... »

ثم قررت أن ألزم الصمت نادمًا على ما قلت .. ليس من واجبى الحفاظ على سرهم، لكننى لا أتحمل الحماقة حين يمارسها أمامى أحدهم بوجه صلب، حتى لو كان فى هذه الحماقة نجاتى .. وبالفعل همست الفتاة :

- « لماذا لا تصمت ؟ هل أنت معهم أم معنا ؟ »

فكر (توماس) قليلاً، ثم غمغم وهو ينظر للسكين مفكرًا :

- « أرى أن علينا أن نهجم .. لقد تجاوزنا مرحلة

الصمت والخوف .. وفيما بعد لن يجدونا .. لا أحد يستطيع تمشيط شبكة مجارى (لندن) مهما حاول .. »

حقًا هو محق .. لا أحد يمكنه تفتيش هذه الشبكة العملاقة .. حقيقة عرفها البريطانيون من زمن .. وفى أكثر قصص الرعب القوطى على غرار (شبح الأوبرا) وسواها، كان عالم كامل من الشر يعمل داخل هذه الشبكة ...

بنظرة ذات معنى تفقدنا، ثم قال لرفاقه :

- « فلتتوار النساء والأطفال، أما كل قادر على القتال فليتبعنى .. »

* * *

كنا الآن - نحن النساء والأطفال - نتوارى فى ما يشبه الكهف الملىء بمواسير الصرف ومواسير المياه وله ثلاث نوافذ تطل على ثلاث سراديب مختلفة .. ومن فتحة مستطيلة تشبه الشباك كان بوسعى من منظور مرتفع أن أرى الرجال وهم يعملون فى الظلام .. طبعًا

من دون عوينات كنت أرى خيالات ، لكنى تمكنت من فهم ما يجرى .. وبالطبع اعتمدت على طريقة تضييق فتحة العين وتقطيب الجبين ..

كانوا أربعة ، وكانت معهم آلة عملاقة هى التى سمعنا هديرها .. تتلقى الكهرباء من كابل عملاق فوق الأرض .. وكان كل رجل من الرجال يضع على رأسه خوذة مضيئة كعمال المناجم ، ويحمل أداة تشبه حفار الطرق الذى نعرفه .. جوار كل منهم كانت حقيبة غذائه الصغيرة ، ومعها ترمس القهوة ، وكانت رائحة المكان تفوح بالغازات .. الميثان وكبريتيد الهيدروجين .. بينما هم يقفون فى السائل الكريه الذى يصل حتى الركبتين ..

يبدو أنهم هبطوا باستعمال الدرجات القديمة المنحوتة على جدران النفق فى السرداب المجاور ، لأن الحبال والأسلاك كانت تمتد إلى هناك .. وزحفت على بطنى ونظرت عبر كوة صغيرة على الناحية الأخرى ، فلم أر إلا الظلام لأن السرداب كان بلا أضواء .. عدت زحفًا على بطنى لأرمق مصير العمال ، وشعرت بعشرات

الأنفاس الكريهة تحتشد حولى .. لقد كان الجميع هنا يحاول أن يرى المعركة بوضوح واستمتاع ..

من هناك استطعت أن أرى أحدهم يلتفت للآخرين ، ويقول شيئًا ما .. والآخرون يكفون عن العمل ..

من هناك استطعت أن أرى التوتر فى وجوههم ..

من هناك استطعت أن أسمع الصمت ، وللصمت أحيانًا صخب يصم الآذان ..

ثم حدث الهجوم بسرعة وقوة لايمكن تصديقهما ، وهما جديرتان بقوم يصطادون الفئران بأناملهم على كل حال ..

كان العمال ينهالون باللكمات على مهاجميهم ، لكن هؤلاء كانوا يتحركون بثقة فى النفس كالعادة ..

تراجع أحد العمال البؤساء للوراء ، وألصق ظهره بالحائط ، وراح يلوح مهددًا هذه الغيلان بالمثقاب الذى يحمله فى يده .. ورأيتهم يلتفون حوله فى دائرة ، وكأنهم يقولون له كلامًا على غرار : هلم يا فتى .. لاداعى لهذه الألعاب السخيفة ..

لكنه واصل تحريك المثقاب محدثًا دوائر وهمية فى الهواء ..

ثم سمعت صوت النباح من بعيد .. لقد وصلت الكلاب .. وفى اللحظة ذاتها تهاوى أحد العمال بينما حزت سكين (توماس) وريدًا مهمًا فى عنقه ..

كانت الإثارة فى ذروتها والكل يرمق ما يحدث فى نهم .. خاصة العامل الذى يرفض الاستسلام ، والذى ـ فعلاً ـ نجح فى أن يخترق بمثقابه صدر أحد الرجال ..

نباح .. صياح .. صراخ .. هدير مثقاب ..

إن من لايهرب وسط هذا السيرك الرومانى لن يهرب أبدًا ..

* * *

وزحفت على ركبتى إلى الكوة الأخرى ، وجررت جسدى عبرها .. نظرت للوراء فوجدت الفتاة ترمقنى فى توسل كى آخذها أيضًا .. لم يكن ثمة وقت لهذا .. فأنا لا أعرف مدى الخطأ الذى ارتكبته .. ربما أنا مخبول ..

نظرت للوراء فوجدت الفتاة ترمقنى فى توسل كى آخذها أيضًا .. لم يكن ثمة وقت لهذا ..

ربما أنا مجنون .. لن أسمح إذن بأن يدفع واحد آخر ثمن خطاياى .. ثم إن الفتاة ستمنحهم الوقت الكافى كى يلاحظوا ما يحدث .. بينما لو فررت وحدى لأمكننى أن أجلب النجدة ..

تكورت عبر الفجوة وتركت جسدى يسقط فى الممر الثانى ..

لم يكن الارتفاع مخيفًا .. سقطت على الأرض وسط السائل الكريه لكن ليس هذا وقت الاشمئزاز ..

تحسست حتى اصطدمت أناملى بالحبال والكابل على الأرض فرحت أقفو أثرها كالمجنون ..

لست مخطئًا .. إن هناك نورًا من نوع ما ، ومعنى هذا أن هناك فتحة قريبة من هنا ..

آلام صدرى تتزايد من فرط انفعالى لكنى أتحامل .. لو كان معى (النتروجلسرين) لـ ... لكنى لن أموت بقلبى .. ليس الآن .. ولو مت فلن أعرف هذا على كل حال ..

فى النهاية اصطدمت بالجدار ورأيت الدرجات منحوتة فيه ، يتدلى فوقها الكابل محاطًا بالحبال .. ونظرت لأعلى فوجدت فتحة يدخل منها ضوء النهار خافتًا واهيًا ..

دون أن أعرف أن هذه درجات ، وأن هذا الذى على الجانب (درابزين) قديم عمودى ، تشبثت .. وبدأت أصعد .. أصعد .. لابد أن الارتفاع كان نحو أربعة أمتار .. وكان بوسعى أن أسمع الآن صوت السيارات فى الشارع وضجيج العالم الحقيقى .. وكان بوسعى أيضًا أن أسمع صراخ العامل الأخير الذى ينتزعون روحه بعد ما أخذوا منه المثقاب ..

أخيرًا صار صدرى خارج المجرور ، وفى مستوى الشارع ..

عربة (فان) تقف هناك .. تخرج منها عشرات الكابلات والحبال .. ولافتات من النوع الذى يثبت على الأرض ، ويكتب عليها (نأسف للإزعاج .. إصلاحات .. إلخ .) .. وثمة ملاحظ جلس على الإفريز يشرب القهوة من ترمس كبير .. فما إن رآنى حتى هب مفتوح الفم فى بلاهة ..

قلت له بالعربية (لأن اللغة الأم هى ما نستخدمه فى الاستغاثة) :

- « أسرع .. هات نجدة حالاً .. »

ثم تداركت الأمر حين رأيت الغباء فى عينيه ، فشغلت جهاز الترجمة الإنجليزية :

- « إن رجالكم فى ... فى ... النفق ... إنهم يـ ... يموتون ... أكلة لحوم بشر لو ... لو كنت تفهم ما ... ما أعنيه .. »

وهنا خرجت اليد من فتحة المجرور .. لم أرها لكنى شعرت بها حول كاحلى .. يد قوية حديدية تحاول جرى إلى أسفل ثانية ! لم يكن هروبى سرياً تماماً !

ارتميت على الأرض وصرخت :

- « إنهم يحاولون أن ... »

لم يفهم الرجل شيئاً لكنه رأى أن هناك من يحاول جر رجل آخر إلى المجرور فراح يجذبنى بقوة .. وسمع

أحد المارة الجلبة ، فلم يحتفظ بالبرود البريطانى العتيد وهرع بدوره يمد لى يد العون ..

وأخيراً بدأت أرتفع ومعى ارتفع أحد هؤلاء المسعورين - لابد أنه (توماس) - وقد تحول بالفعل إلى مسخ من فرط الشراسة والضوء الذى أعماه تماماً .. وكان يزأر كالذئاب ويحاول أن يفتك بأى واحد يقترب منه ..

- « ما هذا الشىء ؟ لم لا تفعلون شيئاً ؟ »

كذا صاحت إحدى النساء فى هستيريا ، على حين واصل الرجلان توجيه الركلات للمسخ المتمسك بساقى .. وفى النهاية تخلى عنها وسقط فى المجرور من جديد ..

وغبت أنا عن الوعى ..

* * *

١٢ـ هل هى الخاتمة حقًا ؟

القانون الحادى عشر :

لايوجد قانون حادى عشر ..

* * *

قال لى المفتش (رادكليف) من (سكوتلانديارد) :

ـ « من حسن حظك أن عمال المجارى ماتوا وأن بعض الناس رأوا ما رأيت ، وإلا ما صدق أحد هذه القصة .. »

قلت له فى إنهاك وأنا أنظر إلى قدمى البارزة من تحت الملاءة :

ـ « لاحسن حظ فى موت عمال أبرياء .. لكنى برغم كل شىء سعيد لأنكم صدقتمونى .. »

قال :

ـ « لدينا شاهد آخر على صدق كلامك .. وهو عجوز سكير يدعى (إزكيال) .. إنه اعتاد أن يجوب المترو ليلاً نهارًا ، ومعه كلبه .. وقد رأى بعض هؤلاء القوم .. بل إنه رأى عملية اغتيال حدثت ليلاً وفر بعدها .. لكنه مصر على أنهم فتكوا بكلبه .. »

ـ « هذا صحيح .. لكنى أحسب أن شهادة رجل كهذا بلا جدوى .. »

ـ « لقد جن تمامًا على كل حال .. البارانويا هى بالضبط ما نمر به الآن .. »

جاءت الممرضة تحضر شيئًا .. فصمت المفتش حتى غادرت المكان ثم قال :

ـ « بالطبع لم نجد الباقين .. مستحيل أن تجد أحدًا فى شبكة المجارى .. قلت لى كم عددهم ؟ »

ـ « لن يقل عن الخمسين أبدًا .. »

- « إذن هناك عشرون على الأقل منهم .. »

- « هل ظفرتم بثلاثين ؟ »

ابتسم فى ثقة وقال وهو يحك رأسه :

- « لم نظفر بهم .. لقد ظفر بهم المترو .. هؤلاء المخابيل وقفوا فى طريق المترو فى أثناء اندفاعه عبر النفق .. وكانوا يلوحون بالمشاعل والسلاح الأبيض وكان معهم مسدس .. »

مسدسى لقد نسيته !

لكنى بالطبع لم أجرؤ على إخبار المفتش أننى دخلت الجزيرة البريطانية ومعى مسدس لا تعرف عنه الجمارك شيئًا .. فقط قلت :

- « وماذا حدث بعدها ؟ »

- « كانوا يحسبون أنهم فى عصر القطارات الأمريكية العتيقة .. وحسبوا أنهم بهذا سيقطعون طريق المترو ويرغمون السائق على التوقف .. لكن حتى لو أراد هذا

ما كان يستطيع .. اندفع ليدوسهم وهو يحاول يائسًا أن يبطئ السرعة .. وأطلق آخرهم سبة وأطلق الرصاص على واجهة المترو ، لكنها لم تصب السائق ، وكان هذا آخر ما فعله هذا الكاوبوى الأخير .. »

غطيت وجهى من هول الموقف فقال المفتش :

- لقد جمعنا من الأشلاء ما يوحى بأنهم ثلاثون .. هل لديك تفسير لما فعلوه ؟ »

- « ليس لدى تفسير واحد .. »

ونظرت من جديد إلى الملاءة المجعدة وقلت :

- « لايوجد تفسير واحد .. هناك أكثر من تفسير مجتمعة .. المرض الذى حل بهم .. إن الجذام ليس نوعًا من الزكام لو كنت تفهم ما أعنيه .. لقد شعروا أن سبب وجودهم نفسه قد زال .. وأن انقراضهم صار مسألة وقت ..

« أضف لهذا أنهم أدركوا أن أمرهم لم يعد سرًا ، وأننى سأخبر العالم بكل شىء ..

« أضف لهذا شعورهم الزائف بالقوة .. فهم لم يعودوا يهابون العالم الخارجى ، وهجماتهم على محطات المترو تشهد بهذا ..

« أضف لهذا رغبتهم الأخيرة المدمرة فى ترويع العالم الخارجى ، وإحداث أكبر قدر من الأذى .. لو نجح الهجوم لكانت جريمة يهتز لها العالم : افتراس ركاب مترو الأنفاق ! يبدو لى عنوانًا شائقًا بحق .. ولو فشل فهم لن يخسروا شيئًا وقد فقدوا كل شىء بالفعل ..

« لقد كان هذا الهجوم الأخير مشهدًا يبعث القشعريرة فى النفس .. المواجهة بين قوى الطبيعة الكاسحة وبين الحضارة التى لاترحم .. المواجهة بين الفطرة الخشنة القاسية وبين الآلة ..

« كانت نتيجته معروفة سلفًا وأعتقد أنهم لم يندموا كثيرًا ..

« لقد ألقت العشيرة آخر ورقة لديها وخسرت .. وكان هذا محتومًا .. »

* * *

وماذا عن الباقين ؟

لا أعتقد أن أحدًا سيجدهم .. ربما يموتون وربما هم الآن فى المجارى يكونون عشيرة أخرى .. لن نعرف أبدًا حتى يختفى المسافر الليلى التالى بلا تفسير ..

وإن كنت أرجح أن الأقوى والأشجع هم من مات فى عملية المترو هذه .. بالتالى لم يبق سوى النساء والأطفال و ... (ليزا) ..

ترى ماذا تفعله وتقوله الآن ؟ هل هى حية ؟ هل ستغفر لى التخلى عنها ؟

كنت آمل أن آتى بنجدة يا (ليزا) وكان هروبك معى سيقضى علينا معًا ..

www.liilas.com/vb3 ARAYAHEEN^

لم يبق سوى النساء والأطفال و ... الأطفال ؟؟

لو ظل الأطفال أحياء فإن العشيرة عائدة لاريب في ذلك ..

لكنى سأكون بعيدًا لأنى عائد إلى مصر أخيرًا.. سيكون في مصر مترو أنفاق في التسعينات لكنى لا أعتقد أن العشيرة قادرة على الوصول إليه ..

* * *

وهكذا ودعت (عاصم إبراهيم) طالب الدكتوراه النجيب وعدت إلى مصر منتظرًا أن أبدأ حياة باسمة نوعًا .. من العسير علىّ أن أعيش أية فترة سعيدة دون أن تنتهى بمصيبة ..

وكان الرقم المشئوم ينتظرنى .. ما تفاصيل هذا ؟

لاداعى للتفاصيل لأن هذه قصة أخرى ..

www.liilas.com/vb3

القاهرة

^RAYAHEEN^

مع تحيات منتدى ليلاس